

العرب
تاريخ وحضارة

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أمينة السعيد
نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د . حسين مؤنس
مدير التحرير : عايدة عياد

العدد ٣٤٩ — صفر ١٤٠٠ — يناير ١٩٨٠

No. 349 — January 1980

مركز الإدارة

دار الهلال ٦٦ محمد عز العرب
تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي — ١٢ عددا — في جمهورية مصر العربية سبعون قرشا بالبريد العادي ، وفي بلاد اتحادي البريد العربي والأفريقي وباكستان ثلاثة جنيهات ونصف جنيه مصري بالبريد الجوي ، وفي سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي وعشرة دولارات بالبريد الجوي .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج . م . ع . نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفي الخارج بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع



العرب
تاريخ وحضارة

•

تأليف: أنتوني ناتنج
ترجمة: محمود مسعود

•

دار الهلال

•

الجزء الأول



القسم الأول

عصر الفتوح

الفصل الأول :

العالم العربي قبل الإسلام

يصنع أناس التاريخ أكثر مما يصنع التاريخ الناس ، بيد أنه لا يمكن وجود جنس أو أمة أشد تأثرًا بالطابع الشخصي أكثر مما اتسم به تاريخ العرب ، ففي قراءة أربعة عشر قرنًا ، منذ انصرام النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، تتكشف قصة المآثر العربي مثل سلسلة جبال ممتدة ، تمثل قممها الشاهقة الفتوح ومطالع الأعمال التي قامت بها الشخصيات التاريخية الكبرى – خالد بن الوليد ، صلاح الدين ، عبد الرحمن الناصر ، بيبرس ، محمد علي ، وجمال عبد الناصر – وفيما بين القمم أغوار ووديان شديدة الانحدار تمثل انحدارًا عميقًا بعد أن تغادر كل شخصية كبرى المسرح . ولقد تعاقب على حكم العالم العربي عبر القرون ، بجزئه أو كله ، أسر حاكمة مختلفة – الأمويون ، والعباسيون ، والفاطميون ، والأيوبيون ، والمماليك ، والعثمانيون ، وأسرة محمد علي ، ثم الهاشميون . وعلى نسق مشابه تمامًا كان مؤسس كل أسرة يبني أسس الحكومة لا يلبث ورثته وخلفاؤه أن يفقدوها عاجلاً أو آجلاً ، ليصعد على الأثر زعيم جديد وأسرة حاكمة جديدة ويتكرر هذا على طول القرون .

إن هذا الطابع من تعاقب الإنجاز العظيم والتدهور

العميق ظل يحتدم في العالم العربي منذ أن بشر محمد
(صلى الله عليه وسلم) بعقيدة التوحيد وبث في صحابته
روحا مكنتهم من أن يخرجوا من شبه الجزيرة العربية في
القرن السابع الميلادي ويفتحوا فلسطين ومصر وسوريا
والعراق وفارس . وقد ظلت الفتوح الأولى تزداد في
عصر الأمويين الذين نقلوا مقر الخلافة من
مكة إلى دمشق وامتدت دولتهم تمد رقعتها عبر أفريقيا
الشمالية وأوروبا حتى أقامت أكبر امبراطورية في تاريخ
العالم — من سمرقند إلى مراكش ، ومن عدن إلى جبال
البرانس . وبعد ذلك انتقل مركز السلطة مباشرة إلى
العراق ، بعد أن تولى العباسيون الخلافة من أيدي
الأمويين ، وأنزلوا بهم الانتقام الرهيب واستأصلوهم من
بكرة أبيهم تقريبا من الوجود . ولكن سرعان ما تحول العباسيون
من بناة الامبراطوريات إلى خلق مركز للثقافة والأبهة في
بغداد لا مثيل له في عصره ، ما لبث العرب أن مالوا إلى
الدعة ومباذل الترف والثراء ، وهزموا على أنهم هم
أنداد الفاطميين الذين أداروا دولتهم من مصر ، والصليبيين
الذين غزوا فلسطين ، ثم تحطمت القوى بقيادة هولاكو
وتيمورلنك التي تحطمت في فارس والعراق والشام .
ثم جاء صلاح الدين وأسرته الأيوبية بدورهم فتصدوا
للفاطميين وحرروا فلسطين والشام من الصليبيين
الغزاة . ولكن حتى امبراطورية صلاح الدين الكبرى لم
تلبث أن تمزقت بعدها من خلال المنازعات التي نشبت بين
ملوكها وسقطت في أيدي المماليك .

وكانت مصر حتى ذلك قد أصبحت مركزا جديدا
للنفوذ العربي والثقافة العربية . بيد أن هذا لم يكن كافيا
ضد المد التالي للغزو عندما هبط الأتراك العثمانيون

زاحفين من الاناضول وفرضوا امبراطوريتهم على العرب
من نهر الدجلة الى جبال النيل [illegible] ، [illegible]
لعهد حتى [illegible] في [illegible] ، [illegible]
ثم رفع راية الثورة ضده [illegible] ، وتقدم عدد
لجماعة من العرب المسلحين في الشام ان يحاولوا من
جديد الحكم العربي من [illegible] العثمانيين بعد حكم
عثماني .

وفي خلال الحرب العالمية الاولى انتزعت اسرة
الشريف حسين الهاشمية بمكة الاستقلال من الامبراطورية
التركية العثمانية ؛ ولكنها ما لبثت بعد [illegible] اوليه
للمجتمع اذ رفضت فرنسا وبريطانيا الاجنبية عرشه
لطلائع قوة جديدة ناهضة ؛ هي قوة آل سعود حكام نجد
في وسط شبه الجزيرة العربية . ولم يبق الآن من هذا
البيت الهاشمي سوى حكم ضعيف في الاردن . يستمد قوته
الى حد كبير من الامدادات من مناصريه وجيرانه : [illegible]
حين قام زعيم سياسي جديد هو جمال عبد الناصر تنادي
بقومية عربية ثورية جديدة اخذت تنتشر كالنار في هشيم
المجتمع العربي .

وفي تناول الفصول التالية من هذا الكتاب سرد هذا
التاريخ الطويل وروايته على وجه التفصيل ؛ بقدر
ما يسعى الى تصوير الشخصيات ، واصحاب سيرها
وابطاله : صاحب الهجرة الطيبة وصحابته [illegible]
[illegible] على [illegible] ؛ ممن تصافروا في وضع
سطور هذا التاريخ . انها ليست سجلا للاحداث
بقدر ما هي معرض صور الشخصيات التي جعلت الاحداث
ممكنة واقعة .

***

ويجب الانتقال الى الكتابات القديمة بالوثائق بنتيجه

لعدم توفر ورق الكتابة تبعـا لهذا وورق البردي الذي
انتشرت به مصر ، فقد ظل التـاريخ العربي البكر
مقصـورا الى حد كبير على الروايات والاستدلال
والقصـائد معـا كان يتواتر نقلها ولا يجـري
تدوينه في الورق على مدار مئات الأعوام بعد الأحداث
التي تشير اليها . ولكن محاولات ناجحة في القرن التاسع
عشر لفك رموز الكتابة السامية التي ترجع الى ما قبل
المسيحية قد كشفت عن تشـابه بين لغة البابليين
والآشـوريين والآراميين والكنعانيين والفينيقيين
والعموريين والعبرانيين والعرب والأحباش ، تشابه كان
له من القوة واسترعاء النظر ما أوحى بأن هذه الأقوام
لابد أنها انحدرت من أصول واحدة . ومن هنا انطلق
شك بأن أسلاف الساميين كانوا هم العرب الأصليون
أو الساميون من نسل سام ـ ولفظ عربي ، هو التعبير
السامي عن سكان الصحراء ـ ثم تحولوا الآن الى أوائل
الاستيطان الحضري في جنوب العرب حدث في اليمن
في عهد مملكة ســبأ ، هو الجيل التالي
من ســلالة سام ، ويبدو جيدا أن أصل هذا
الرأي من شبه الجزيرة العربية أسبق من أن يشع لعدد
متزايد من السكان : أن الهجرة العربية الأولى
حوالي عام ٣٥٠٠ ق . م . الى التدرج على امتداد الساحل
الغربي لشبه الجزيرة العربية ، مرورا بالحجاز وسيناء ،
الى أرض مصر ، حيث اختلط الساميون بالحاميين بحياة
مثم المصريين الذين عرفهم التاريخ ، وقدموا من عناصر
العلم والثقافة ما هو أساس حضارتنا الراهنة .

وقد حدثت هجرة أخرى على امتداد الشواطىء الشرقية
لشبه الجزيرة العربية وانتهى بها المطاف الى الاستقرار

في وادي نهري الدجلة والفرات ، حيث اتحد السامريون مع السومريين الاصليين وجاء منهم البابليون ، وكما حدث مع نظرائهم في مصر ، فقد اخذوا من الثقافة افضل العادات والطرائق الطيبة ما يفي باحتياجاتهم ، وبعد الف سنة اخرى حدثت هجرات اخرى عربية الى الشام وشرقي الاردن ونشأت منها امم الاموريين والفينيقيين . وبعد الف سنة اخرى فيما بين عامي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق . م . قدم العبرانيون الرحل الى فلسطين واظهروا اول ديانة في العالم تدعو الى التوحيد ، وقد اصبحت بدورها أساسا للعقيدة المسيحية . وفي نفس الوقت اتخذ الآراميون الى الشام واسسوا مملكة في دمشق . ولكن الآراميين ما لبثوا في القرن التاسع قبل الميلاد ان دانت مواطنهم امام الاشوريين من مملكة آشور ، الذين جاءوا من نينوى واتخذوا امبراطورية لتمتد من اراضي ما يعرف بجنوبي العراق ، الى ارمينيا في الشمال وسوريا (او لبنان كما هي اليوم) في الغرب ، وهي امبراطورية باستثناء واحد لم تتفق قط — امبراطورية بالنسبة دائما . والى الشرق من ذلك سيطر البدويون على فارس الحديثة باسرها وعلى جزء كبير مما نعرفه الآن باسم باكستان في حين اصبحت شبه الجزيرة العربية قلعة منيعة تحرسها الصحراء لا ينفذ اليها طارق .

وقد خلف الكلدانيون لفترة قصيرة الاشوريين في حكم الشام وجنوب الجزيرة وجنوب تركيا . ولكن استقلال هذه الامبراطوريات القديمة ما انتهت في القرن السادس قبل الميلاد ان لقى نهايته بهجوم الايرانيين اسلاف الفارسيين اليوم ، اولئك الذين انطلقوا من مواطنهم جنوبي بحر قزوين واستولوا على امبراطورية الميديين في الشرق وعدوا رقاع ممتلكاتهم حتى تشمل آسيا الصغرى وشطرا من

قبرص ، بالاضافة الى مصر وليبيا وفلسطين والشام والعراق . وبعد قرنين من الزمان حكم اليونانيون الوضع تحت قيادة الاسكندر الأكبر وصدوا ضغط الفرس ، لكي يسقطوا هم أنفسهم على أيدي الرومان . وبحلول القرن الثاني الميلادي استوعبت روما جميع امبراطورية اليونان كلها من ليبيا الى العراق ، ولكنها وقفت عند حدود بادية وصحارى الأراضي العربية في الجنوب . وبمثل كما هو الحال في التاريخ الحديث ، ركزت الامبراطوريات الكبرى في أوروبا اهتمامها على الأراضي الخصبة في شمال وشرق البلاد العربية ، تاركة الأقاليم الصحراوية الجدبة من شبه الجزيرة العربية وشأنها .

وكانت العلاقات بين جميع السلالات الحاكمة لشعوب العرب الأصليين وبين حكامهم من المصريين والبيزنطيين والرومان سلمية ومتسامحة ، اذ قد هيأ الأطراف الثلاثة بعضهم لبعض فرصا عديدة للتجارة ، وبعد اعتناق روما للمسيحية دخل الكثيرون من رعاياها في اليمن وفلسطين ومصر في الديانة الجديدة . ولكن خلال الاحتلال الروماني حدث أحد التطورات السياسية الكبرى في مجال التجارة وعدد جدا ذلك في جنوب شبه الجزيرة العربية . ذلك أن مملكة اليمن الأصلية التي حتى ذلك العهد قد انهارت وانقسمت الى مجموعة من الدويلات والممالك الصغيرة : كانت مملكة سبأ هي أقواها وقد حكمت فيما بين عام ٧٥٠ وعام ١١٥ ق.م . وقد استطاع أهل سبأ ، أو نبتجو العرب ، أن يباشروا عمليات تجارية وافرة الربح كان قوامها اعادة نقل وتصدير التوابل والأقمشة والحرائر الصينية والى الخليج العربي ومنسوجات الهند الى جانب منتجاتها من التوابل والعطور التي كان يقبل عليها الرومان المتعطشون بالترف .

ولقد دام احتكارهم لهذه التجارة التي كانت تنقلها
الجمال على شاطئ البحر الأحمر مرورا بمكة الى مصر
والى البحر الأبيض المتوسط — مدى قرون عديدة ، الى
أن وجد الرومان استعاضة عنه الى آخر حد . وقد
حدث حوالي عام ١٥٠ ق . م . ان بطليموس الثاني حاكم
مصر عمل في همة لوضع بلاده على الخريطة والاهتمام
بنصيبه في تجارة النقل مع سوماطرا عن طريق اعادة فتح قناة
مهملة كانت قبل ذلك بستة عشر قرنا تربط النيل بالبحر
الأحمر . وبعد ذلك احدثت السفن التجارية الرومانية
والعربية تدرج الطريق ذهابا وعودة الى الشرق محملة ،
جالبة في عودتها مواد الترف التي عمل التجار العرب على
اقتناء العالم الغربي على مدار مئات الاعوام بحيث لا يمكن
الحصول عليها الا في بلاد العرب . وهكذا ازدهر رخاؤها
وسلطانها .

وكانت البتراء من المدن العربية الهامة التي طبعت
بالتفوق التجاري بوصفها محطة القوافل ، وكانت تعد
من الفخامة جوهرة حتى دمشق شمالا في القرن الأول
الميلادي . وكان النبطيون ، وهم أبناء نبيوت بن اسماعيل
وهم عرب رحل — قدموا الى البتراء بوصفهم اصحابها ، قد
قدموا من شرق الأردن حوالي عام ٦٠٠ ق . م . وحلوا
محل الإيدوميين أهلها الأصليين . وفي عام ٣١٢ ق . م
قاوموا غزوا للروم قام به خليفة الاسكندر في انتصار ،
ولكنهم بعد قرنين أصبحوا مستعمرة للامبراطور الروماني
تراجان . وبعد ثلاثمائة عام أخرى أدار النبطيون انفسهم
للقيام بمحاولة رومانية لغزو جنوب البلاد العربية
والاستيلاء على اليمن . ولكن الحملة باءت بفشلها وعادت
الى اليمن موسومة بالفشل ، وكانت البتراء ، مثل سبأ ،

تجني دخلا من القوافل التي تجتـــاز صحرائها الضيقة الوردية الحمراء وتجد عند المباني المأوى والابل البديلة والصحابة استعدادا للرحلة التالية . على انه بعد ان طور الرومان طرقهم البحرية الى الشرق ، متجاوزين شبه الجزيرة العربية ، ما لبثت البتراء بدورها ان فقدت مكانتها وحلت محلها بصرى كمركز لطرق القوافل في بلاد العرب .

وقد ضعفت بصرى حتى نهاية القرن الاول الميلادي على وجود محاربة مستورة غير مستقرة فيمـــا بين الامبراطوريتين روما وفارس المتنافستين ولكن وقوع هذه المدينة في مركز استراتيجي على المفترق الطرق بين الخليج العربي والبحر الابيض المتوسط طريق الشام ؛ هيأ لها سموا في الثراء حتى اصبحت واحدة من اغنى البلاد في الشرق الاوسط ، وفي عام ٢٦٠ الميلادي تمكن حاكمها اذينة من طرد الفرس من الشام ومطاردتهم حتى أسوار عاصمتهم طيسفون على نهر الدجلة ، وهكذا استطاعت بصرى في مدى اشهر قلائل ان تحكم باسم روما آسيا الصغرى والشام ومصر . ولكن سعدها كان قصير الأمد . ففي عام ٢٦٦ قتل اذينة وقيل انه لقي مصرعه بتدبير من جانب الرومان . واعقب ذلك فترة تعد قصيرة حينما انقلبت ارملته الجميلة الطموحة المعروفة باسم الزباء على روما ؛ فقد طردت الرومان من الشام ، واحتلت الاسكندرية ونادت باسمها ملكا على مصر وبنفسها ملكة على الشرق . بيد ان روما ما كان بمكنها ان تهزم بهذه السهولة ؛ ففي هجوم مضاد عاصف على بصرى وقعت الزباء في الأسر واقتيدت الى روما مكبلة بأغلال من ذهب خلف الركبة العربية التي استقلتها أسيرها .

وفي خلال ذلك حل الحميريون في عام ١١٥ ق . م .

محل أهل سبأ في جنوبي بلاد العرب ، وكانوا قبيلة
من النجديين في الجنوب الشرقي ، أسسوا مملكة قدر
لها أن تدوم ستمائة عام ، حتى الغزو الحبشي في عام
٥٢٥ الميلادي . وبسبب ذلك تقلصت التجارة إلى حد ضئيل ،
فإن الحميريين وغيرهم من الحاكمين في جنوب شبه الجزيرة
العربية ارتدوا إلى حياتهم البدائية السابقة . كل
هؤلاء الأقوام البسطاء الذين لم تمسهم بعد الديانة
اليهودية والمسيحية يعبدون ما يتفق واحتياجات وجودهم
الضئيل . وخلافاً لما كان عليه الفارسي الذي تلقى من
زرادشت عبادة الشمس باعتبارها مصدر الكائن الأعلى ،
وإذ يقرنوا الخير بالضوء والشر والإثم بالظلام — فإن
العرب في تلك العهود كانوا يعبدون معبودهم القمر . فعند
الفارسي الذي كان يعيش في الأراضي المرتفعة الجبلية كانت
حرارة الشمس تصدو محل سرور وترحاب ، أما عند
العربي سالك السهول الصحراوية فإن الشمس كانت
بمثابة قوة قاتلة ، والقمر يجلب الندى والظلال بعد
الحرارة المحرقة والسرور الذي ينمي الأعشاب في النهار ،
وكان المتوهج في الأساطير الوثنية في الحجر الأسود في
الكعبة بمكة ، وكان موضع التقديس قبل الإسلام بزمن
طويل ، فقد القديم من السماء هلال إله القمر ، وكان يقصده
الحجاج والمسافرون الذين أتوا البعيد . وكانت القبائل
العربية الأخرى تعلم بالتعصب والنظر ؛ ولهذا فقد كانت
تعبد الإبل والكهوف ، والأشجار . وكانت بئر زمزم
الشهيرة قرب مكة محل تقديس خاص ، إلا قيل من
أنها أنقذت هاجر وإسماعيل من الموت عطشاً في القفار .

وكانت حياة العرب الاجتماعية مثل ديانتهم ، مرتبطة
بمطلب وجود خشن قاس وكثير الخطر ، وخاصة بالنسبة

البدوي (الرحل) وهو الاسم المشتق من البادية) . وكانت قوانين وعادات القبائل ، وهي التي بقيت الى حد كبير دون تغيير الى اليوم ؛ وقد حافظت القبائل على اسلوب حياتها في هذه المناطق القصية بمعزل اليوم حيث حلت السيارة الشاحنة محل الجمل كوسيلة للانتقال شيوخ القبائل ــ وقد نشأت ثقافة الدائرة للتغلب على ما في الحياة الصحراوية من ألوان التقلب والمشقة .

وكما يقول فيليب حتي في كتابه (تاريخ العرب) : « ان البدوي ليس من الغجر الذين يهيمون بلا هدف لمجرد التجوال ، انه يمثل أفضل تكيف للحياة البشرية مع ظروف الصحراء . وحيثما توجد الأرض الممطرة فانه يتجه اليها بحثاً عن المرعى . ان الحياة البدوية هي نمط علمي للعيش في النجود ، وهي النجد الصحراوي الأوسط من شبه الجزيرة العربية ، مثلها مثل الحياة في البيئة الصناعية بالنسبة لديترويت او مانشستر » .

وطبقاً لصورة الحياة لا تتغير ولا تقبل التغيير منذ العصور السابقة للاسلام ، بات البدوي الرحل منذ خمسة عشر قرناً من الزمان على عيش ويأكل ويسافر ويتأثر في نفس النمط الذي ستحذوه سلالته الى اليوم . فالطعام الأساسي في طعامه يتكون من التمر ، والدقيق ، ولبن الناقة أو الماعز ، الا انه لم يحتفظ به عادة الا للمعز والقمر . وكان ملبسه ، ولا يزال ، قميصاً يمتد حتى رقبته ؛ وفوقه ازار يتدلى حتى رسغيه ، ويغطي رأسه بشال معقود بحبل ، يطرحه حول عنقه ووجهه لوقايته من الشمس والعواصف الأتربة عن انفه وفمه . وكان مسكنه بالشعر بيتاً له أقل قدر من الراحة ويتألف من خيمة مستطيلة واطئة مصنوعة من

الوبر الأسود أو البني لطرد الإبل أو الماعز . وكان مورد عيشه يقوم على تربية الإبل وسلالة الغنم والمعز والجمل ، واحيانا الخيل ، وهو يبادل النسيج الصوفي على الطعام وغيره من الاحتياجات الضرورية لحياته .

ومن بين كافة ممتلكاته كان الجمل هو أهمها . فانه لا يهيىء له فقط وسيلة الانتقال التي تتطلب أقل قدر من الراحة — وفي قدرة الجمل أن يمضي بدون ماء مدة خمسة وعشرين يوما في الشتاء وخمسة أيام في الصيف — بل إن لبنه يقدم له أيضا غذاءه الأساسي ، كما يزوده روثه بالوقود اللازم ؛ وعندما تنتهي أيامه كدابة للحمل : فانه يأكل لحمه ويصنع حقائبه من جلده او اصلاح خيامه .

وكانت الزراعة في أي شكل لمعنى البدوي الذي يحد من حرية التجول الرعوي في الصحراء أدنى مما يليق بكرامته . ان مثل هذا المعنى كان مصدره القرويين وابناء المدن من أهل الاستقرار ، والفلاحين والتجار وارباب الحرف الذين يكدحون في الحقول وحول مستوطنتهم او الذين يحصلون على رزقهم من قوافل الجمال التي تطرق الطرق باستمرار خلال الصحراء متجهة الى الشام أو مصر . وكان هؤلاء القرويون وابناء المدن الذين يعرفون بأهل الحضر يسكنون بيوتا مبنية من الحجر أو الطين ، وكانت منزلتهم الاجتماعية وضيعة عند اهل البادية الرحل الذين يعدون انفسهم اكثر رجولة وشرفا وارفع مقاما . وهكذا كان البدوي المرتحل اذا ألجأته ضرورات المحافظة على الحياة أو إذا أعوزه المال اللازم لجلب الطعام ولم يستطع الحصول عليه بالاغارة على جيرانه من اهل الصحراوات كان يستبيح لنفسه نهب الفلاح أو ابن المدينة معتمدا على سرعة ركابه ، وكان

من شأن هذه المرصفة أن تظهر عنها أعمق السخط بين
العرب المتوطنين ولا ينجم عنها سوى زيادة اتساع وتعميق
الهوة الفاصلة بينهم وبين اخوانهم البدو الرحل . وحتى
اليوم وعلى الرغم من أن العرب المتوطنين يتمتعون بحماية
دولة وبنية عصرية وقد أصبح بدوي الصحراء محكوم
الحروب خاضعا مثلهم للقانون — فان بعض الكراهية
القديمة لا تزال باقية بين الحضري وبين البدوي ، أما
بكنه هذا لذلك من احتقار لما تقوم عليه حياته من طرارة
هي ادنى منزلة من علاقة جنس البيت الصحراوي لذي
الأمر ذاته . ذلك لأن بدوي اليوم لا يزال يعد نفسه
ارستقراطي الوطن وانه أسمى خلق الله طرا .

لكن ، الى عشر في الزمن القديم ان الامارة متى جاد
او تهب فلاح شيئا ساحة ، بعد كانت هوم بين المنتمين
الى قبيلة واحدة سائغة من النواحي والقواعد لتحفظ عن
هذه كل الاخلال ، حتى ما بعد فريسة مشروعة خارج
دائرة القبيلة كل جريمة ان ارتكب في نطاقها . ذلك لأن
العصبية كانت أساس المجتمع البدوي . كانت تدعى عرب
الصحراء هي أسرته ، وحياته ، وثأره — بل في الواقع
سياج دائرته الاجتماعية ، فانها مظلة احتمائه ، والمحل
والمركز الاجتماعي ، ووجود البطل . وبدونها فهو خارج
على القانون يحنق عليه كل انسان . ولن يستطيعها
يستطيع ان يحيا حياة كريمة آمنة بتقصير ما يسمح به
بيئته الصحراوية . وحنوا بتلطف روحانه ورحابه في القتل
وأشد تعلقه الدائمة واستعداد التحريب اسهل في نور
الحروب . واحسد ، والاغارة وترتيب الزواج غير
مع يوم حقته من الوجود . ومن ثم كان شعره هو ، انك
لواحد والراحد للشكل . وهو "المهرن" المطلق الذي يحكم

حياته . كانت : العصبية أو التضامن القبلي هي مجال الاعتبار الأرفع فوق كل ما عداها . ذلك لأن الانتماء إلى أي مجتمع قومي كما عرفناه ، جعل عربي الصحراء يهب حياته وولاءه لقبيلته . وهكذا كانت العصبية بالنسبة إليه مساوية لما نسميه اليوم بالوطنية ؛ وكل من يكن في حق مناصبها ويقصر في مراعاتها في كل أعماله ؛ يلقى العقاب .

ولم يتغير نظام القبائل عبر القرون إلا قليلا ؛ منه ذلك مثل تراتبيتهم ورئاساتهم . وكانت كل قبيلة تنقسم ولا تزال ؛ إلى عشائر ، تتفاوت أعدادها طبقا لحجمها ووضعها الاجتماعي .

بيد أنه مهما يكن من كثرة الأفخاذ والفروع التي تؤلف في كل عشيرة ؛ من أفرادها جميعا يشعرون أنفسهم من دم واحد ، ويخضعون لولاء القبيلة ، التي تستغرق شخصيتها العشيرية المشتركة كل فرد من القبيلة التي الانتماء . ولعل أهمية رابطة الدم هذه ستقل على أن حقيقة أو ادعاء ، إلا أنه ظلوا مهما طال الزمن يسمون أنفسهم (بني) فلان . ومن هنا جاءت التسمية بني حسان في فلسطين القديمة ، وبني صخر في الأردن في أرض الحديث . ويمكن لرجل القبيلة يشير إلى رابطته مع رجال القبيلة بوصف بني عمه ، فهو عقاده بمثابة أبناء الأعمام .

وكانت ممتلكات عربي الصحراء ضئيلة مثل ضآلة البدو ، فما يملكه من خيمته الخاصة والقليل من الأثاث البسيط مثل الأبسطة وجلود الغنم . أما بصفة عامة تلك الحيوانات والأغنام والمعز والإبل ، وهي التي تحتفظ بها قبيلته وتعتبر ملكية مشتركة ، وكافة

حقوق الرعي والآبار ملك للقبيلة غير قابل لأي تحويل .
ولا حق في أرض كلأ الرعي والماء فيها عبر المال بصورة بالغة . ثم نجم الصراع كثيراً بين القبائل بصدد حقوق الرعي واستخدام الآبار . وكما ان القبائل تعد بعضها البعض عدواً مستباحاً لسلب الإبل والغنم والمعز ، فلذلك كانوا يقتتلون حول حق الرعي .

ولكن على الرغم من ان البدو الرحل كانوا كثيراً ما تدفعهم الضرورة الملحة ، وأحيانا الطمع بل حتى دوافع اللهو المحض ، لسلوك مسلك قطاع الطرق لاستلاب كل ما يمكنهم استلابه — فانهم لم يكونوا مجردين من قواعد صارمة معينة للسلوك تخرج رداءهم فتعلو على السواد . ومن هذا انه كان مفروضاً منع الاغارة على حي عدم سفك الدماء الا في حالة الضرورة القصوى ، ونشأ أيضاً ان القبيلة القوية كثيراً ما كانت تتولى حماية قبيلة أضعف ضد الاغارة عليها من جانب طرف ثالث ، وان كان هذا لا يتم دون المقابل من جبي من ابل السماية . وأهم من هذا كله هو ان قوانين الضيافة الصحراوية كان مطلقاً . كانت الضيافة عنصراً جوهرياً في خلق وسلوك البدوي ؛ وتحتل أهمية هذا في شعر من الشعر العربي القديم كثيراً ما كان يستخدم بغية تشخيص الشاعر سبب شعره انه رغم وفادته فهو رب البيت : واصبحته هم الضيف .

ان هذا الضيف الذي جاء التمس الطعام والمأوى كان المفروض عند حلوله ضيفاً حرمة في حق الشرف البدوي - ثم ان "أكل الطعام مع مضيفه يجعل الضيف في مأمن من العدوان عليه ، وبالطبع كان من عادة رؤساء القبائل أن يبنوا حرماً أو مزاراً آمناً للعاصين الذين يحتالون

مناطقهم ، وأي هجوم مباغت على مثل هذا المأوى المنيع بالجماعة فيه مساس بشرف القبيلة كلها . ولا أحد يعرف أكثر من البدوي الرحال مخاطر الحياة الصحراوية وأسفارها ودواب الفلاة ولفح الشمس المحرقة ومخاطر الهجوم من جانب قطاع الطرق — وهو في الواقع يعيش دائما مع الموت .

ولما كانت الحياة في ظروف الصحراء الجاهلية حيث تنحصر جهود كل انسان في مشكلة البقاء حتى تبدد الحياة — ثقافة بدائية مكرسة للفنون العملية المعروفة مثل الصيد ، والقنص ، وركوب الخيل . ولم يكن في المدن والقرى كذلك سوى القليل من التعليم بمعناه الحقيقي . وحتى الأولاد هناك يتركون حين يمكنهم أن يتعلموا تجارة الأسرة أو حرفتها . لكن لم يكن معنى هذا أن كل عربي في عهود الإسلام كان أميا تماما . إذ كان يوجد في كل منطقة مستقرة كتاب وكذلك كان للقبيلة شعراء كانوا محل التوقير لجمال كلامهم وبلاغته وكان شاعر القبيلة كذلك قادرا على إثارة حماس القبيلة عند القتال . أن اللغة العربية باستعمالها الجميل كان ولا يزال لها سحرها في العرب منذ العصر الجاهلي ، ومن لم يكن حتى البدوي الأمي يمكن أن يقضي ساعات لوحده يردد أو يستمع إلى رفاقه من أبناء القبيلة يرددون الشعر أو ينشدونه ويحكون أو يسردون حكايات وأساطير عن حياة الصحراء تلك متوارثة منذ أجيال مضت . وفي عالم مثل هذا محروم من أية ثقافة كانت اللغة العربية وشعرها موضع فخر العربي . لكن الرجل الكامل هو ذلك الذي يجمع بين براعات ثلاث هي البلاغة والرماية بالسهام والفروسية ، وكانت أعظم الثلاث هي البلاغة .

الفصل الثاني :

ظهور النبي صلى الله عليه وسلم .

عند مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) عام ٥٧٠ كان جنوب البلاد العربية ولا سيما الحجاز ساحة للإلحاد وعبادة الأصنام . كانت مكة ، المدينة الرئيسية في الحجاز ، والتي اشتق اسمها من كلمة تعني الحرم حرم يتقيه أهل سبأ ! وقد أصبحت مهمة كمحطة للقوافل على الطريق البري من جنوب البلاد العربية ، وكمركز للحج لكل من يعبدون الأصنام من أي شكل . وكانت الكعبة بيتا ما لا يقل عن ثلاثمائة من الأصنام التي تلائم كل ذوق . وكانت الحروب مستمرة ، والجن محل خوف شديد ، بل إن بعض العرب بالتصغير لمن قد انحط . أما المحرمات سوق عكاظ السنوية للشعر التي [illegible] أسماها أحد المؤرخين الأحاديين العرب : بملتقى للرذيلة لا يوصف ؟ . وكانت ممارسات السكر والعربدة والفجور من الطقوس السائدة عندما كان الصحيح ورجال القوافل [illegible] في بعض ماله من كل نوع . وفي إحدى المناسبات حاول حكام اليمن الأحباش القيام بغزو العمالقة لوضع حد لهذه المباذل الوثنية ، ولكن جيوشهم توقفت [illegible] وباد نزلها في الطريق .

وكانت أكبر قبائل الحجاز في ذلك العصر قبيلة قريش، وهي القبيلة التي وطدت سلطانها بزعامة قصي بن كلاب سليل إبراهيم وإسماعيل سنة ٤٠٠ م ، وكانت قريش قبيلة ذات قوة وسلطان في مكة وما حولها . ولا يعرف إلا القليل عن أعمال قصي ، ولكنه شخصية بارزة وهو جد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وكل خلفاء المسلمين على مدار ستمائة عام بعد وفاة محمد كانوا من سلالته المباشرة . وكان أمية مؤسس الأمويين من أبناء أحفاده . ولقد كان حفيده هاشم جدا للعباس ، الذي تسلسل منه الخلفاء العباسيون . وكان هاشم أيضا ، سلفا للعلويين والهاشميين المحدثين .

وكانت مصالح الوحدات في مكة حتى نهاية القرن السادس مقسمة على أساس ورأي صريح بين الطبقتين الرئيسيتين : بني هاشم وبني عبد شمس بن عبد قبيلة قريش . كان صاحب القلم أو صاحب النور المشرق على بني زمنه هو العباس ؟ عم محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد توفي عبد الله أبو محمد قبل مولد ابنه بأشهر ثلاثة . ويسبب العرف السائد عن عادة الوقاية والمرض والتقاليد القبلية ، وتوفيت رضاعته أمه آمنة بنت وهب رضي الله عنها . وجريا على عادة القرشيين في ذلك العصر بعثت آمنة بابنها محمد إلى منازل بني بكر بن سعد ليشب في الصحراء . وهكذا أمضى محمد السنوات الست الأولى من حياته في الصحراء . ثم توفيت أمه عقب عودته إليها ، فكفله جده أولا ، ثم عمه أبو طالب . وكان أبو طالب يجمع بين دور التاجر وواجبات الشيخ المقيم الثاني ؟ وعندما بلغ محمد الثانية عشرة من عمره صحبه عمه في إحدى رحلات القوافل السنوية التي كان

يقوم بها الى الشام ، وقد توقفت القافلة في طريقها عند أحد الأديرة المسيحية ؛ حيث التقى محمد براهب جرجيسي يدعى بحيرا عرف فيه علامة النبوة وهي متسلمة بين كتفيه . وعلى الرغم من ان محمداً كان امياً ؛ الا انه كان على قدر كبير من الذكاء وحب الاستطلاع والتأمل ، وقد نفر منذ صغره من أسلوب العبادة في مكة القائم على عبادة الأصنام والأوثان . ومن المعتقد أن عمه كان متعاطفا مع آراء ابن اخيه ولكنه آثر برأيه على الكتمان محافظة على مكانته ورعاية لمصالحه كتاجر .

وعندما بلغ محمد الخامسة والعشرين كان قد وصل الى مكان مرموق في المجتمع المكي . وكان متوسط الطول موفور الذكاء ، في خط داج ، مهيب الطلعة ، كبير الرأس ، عريض المنكبين ، أسود الشعر ، له لحية سوداء كثة ، وبشرة بيضاء مشربة بحمرة ، وكانت ابتسامته تفيض بالعطف والمودة ، ولكنه قلما كان يضحك عاليا ؛ ولاشتهاره الى ما عرف به من شهرة كتاجر امين ، ثم عمل في تجارة سيدة غنية اسمها خديجة كانت تمارس التجارة أيضا ، مما أفضى بها الى الزواج من محمد .

ولكن في حين ان زواج محمد وحياته العملية كانا مقترنين بالسلام والسكينة ، فان نفسه كانت تميل الى العزلة والتأمل ، وكان يلجأ الى غار حراء ويقضي فيه شهر رمضان من كل سنة . وبينما كان يتعبد في الغار يوماً نزل عليه الوحي يحمله اليه جبريل وقال له يقول : (اقرأ) ؛ فقال محمد (صلى الله عليه وسلم) : ما أنا بقارئ وتكرر هذا ثلاث مرات ثم تلا جبريل قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الأعلى) الخ الآيات الخمس الأولى من سورة (العلق) ؛ فرددها محمد وهو خائف . ثم أسرع

الى بيته وهو يرتعد ويقول : زملوني ، زملوني ، واسرعت اليه زوجته المخلصة خديجة بنت خويلد تدثره في ثوب رمضى تطمئنه حتى هدأت نفسه .

وابتدأ منها تأثيره خلق الصيق فقد صحبته الى ابن خالتها ورقة بن نوفل الذى يقال انه كان نصرانياً فطمأنه ورقة وقال له ان هذا هو الناموس الذى انزل على موسى وخلال الاسابيع التالية عرف محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ان جبريل حمل اليه رسالة ربه فاصبح نبياً رسولاً ومضى ينشر رسالته ، ونشر دعوته خفية امامه الذين هم عشيرته الاقربين وقلة من اصحابه . فصدقته خديجة في الدين ، كما دخل على ابن عمه ابي طالب ، الذى تزوج ابنته فاطمة فيما بعد . وكذلك اسلم ابو بكر صديقه الحميم ، وعثمان ابن عفان وهو ابن عم ابي سفيان ، من بين اوائل المسلمين القلائل . ولكن اعمامه لم يسمعوا من الحياد الكريم مثل ابي طالب وبين العداوة المتطرفة مثل ابي لهب

ثم تلقى محمد من جبريل في عام ٦١٢ الدعوة الى المجاهرة برسالة ربه وتوجيهها الى الناس كافة وخاصة قريش ، وسمى دينه « الاسلام » وسماه المسلم لله ؛ وسمى اتباعه المسلمين ، واعلن الى اهل مكة ان الله هو الواحد الذى اسماؤكم تعبدون ، وان يوم الحساب آت يوم يهلك الكفار في نار جهنم وينعم المؤمنون بالجنة خالدين فيها . وقد قوبلت دعوته بالضحك والسخرية ، وقيل له الرجل ان كنت نبياً فأت بمعجزات مثل موسى وعيسى . فلما حاربهم بان كلمة الله هي المعجزة الكبرى قابلوه بالضحك الصاخب

ورغم ذلك فان ظهور محمد لأول مرة كنبيه زيادة

حفنة من المسلمين ، والرأي متوجه شخص من قريش انهم ازاء خطر محتمل يهددهم ويهدد اسلوب حياتهم . ونصح زعيمهم ابو سفيان بقتل محمد من الهاشميين ، ورأى في خروج محمد على عشيرتهم تحديا لا يحرصون عليه . ومع ذلك فخشية من اندلاع منازعات دموية لم يجسر الكفار على قتله . وبدلا من ذلك حاولوا اغراءه بالمال ليترك دعوته . ولما اخفقوا في هذا حاولوا تهديد أبي طالب وغيره من أسرته . واخيرا أخذوا يضايقون محمدا بعدوانهم المتكرر ومحاولة اهانته في كل مكان ، تكاثروا يضربون اصحابه ويطيلون تعذيبه . فخرج محمد الى الطائف ، املا في دخول اهله في الاسلام ولكنه لم يوفق . وفي عام ٦١٥ اضطر الى ان يرسل ابن عمه وعدة أو نحو ذلك لالتماس الحماية من نجاشي الحبشة النصراني ، وبقي هو مع نفر قليلة من اصحابه في مكة .

وعندما اخفق الكفار في حمل محمد على التخلي عن دينهم أمام محمد اتفقوا على الهاشميين في الحجاز وسلطوا عليهم سلاح المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية لاجبارهم على تسليم النبي اليهم . وظل الهاشميون مدى ثلاث سنوات وهم لا يستطيعون ان يشتروا او يبيعوا شيئا ، ولكنهم صمدوا رغم تعرضهم للجوع والهلاك ؛ ومن الموت الذي او سبيل سلاحه . ولم يشذ من اسرة محمد سوى أبي لهب الذي انضم الى الكفار ، وبلغ به الحنق حدا جعله يأمر ابنه بتطليق رقية ابنة محمد ؛ وقد تزوجت بعد ذلك عثمان بن عفان ، الذي قدر له فيما بعد أن يصبح أحد الخلفاء الأوائل الذين خلفوا النبي .

وفي عام ٦١٧ توفيت السيدة خديجة ولحق بها

ابو طالب على الاثر ، وفي نفس الوقت دخل في الاسلام واحد من ابرز القرشيين هو عمر بن الخطاب . ثم اسرى به صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ثم عرج الى السماء ، حيث رفع في السموات السبع الى العرش ، وفي عروجه التقى بالأنبياء السابقين آدم ونوح وهارون وموسى وابراهيم وعيسى ، وبعد ذلك يقابل النبي محمد جماعة من أهل يثرب التي تبعد حوالي ٢٧٠ ميلا الى الشمال من مكة ؛ فتلا عليهم القرآن ودعاهم الى الاسلام، وقد تأثروا كثيرا بما تلا عليهم . ولما رجعوا الى قومهم اقنعوا اهل المدينة بأن محمدا هو الرسول الذي كانوا ينتظرونه . وبعد عشرة اشهر من المدينة جماعة قوامها سبعون رجلا وامرأتان فاجتمعوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ودعوه الى الانتقال الى مدينتهم . وقد كان هذا أول عهد منهم . تقبل الرسول الدعوة على الفور ، وارسل واحدا من اصحابه وهو مصعب بن عمير مع مئة وخمسون من اتباعه لتمهيد الطريق . بعد عدد من ذلك هاجر محمد صلى الله عليه وسلم ، الى المدينة على الرغم من تعقب المشركين له . ولكن العناية الالهية أعمت أبصارهم ، ووصل محمد في رفقة صاحبه ابي بكر الى يثرب في سلام في سبتمبر عام ٦٢٢ .

تلك هي قصة الهجرة ، كما سميت رحلة النبي (صلى الله عليه وسلم) . وتأكيدا بشأنها باعتبارها نقطة التحول في موكب الاسلام ، أمر بها بعد ذلك سبعة عشر عاما ، عندما قرر عمر بن الخطاب وهو خليفة المسلمين ان يكون عام ٦٢٢ هو عام الهجرة ؛ والبداية الرسمية للتاريخ الاسلامي .

وقد أقام محمد أول الأمر مع تابعيه اللذين ما لبثا

الى مساكن الأنصار في ضاحية ليثرب ، حيث بنى أول مسجد ، ثم انتقل بعد ذلك الى المدينة ، وفي البقعة التي بركت فيها ناقته "القصواء" بنى مسجده بالقرب من دار أبي أيوب الأنصاري . ولا شيء أوضح ببساطته ومقته للترف أكثر من هذا البنيان البسيط الذي استخدمه طيلة الأعوام الباقية من بعثته مكانا للعبادة والتعليم والراحة . كانت تحيط به جدران من اللبن ، وتسند جذوع النخل سقفه المصنوع من السعف . وكان المكان ذاته مزودا بحصير من سعف النخل كفراش وبأباريق من الفخار . ولم يكن بالمسجد منبر ، فكان النبي يلقي خطبه متكئا على جذع نخلة ، يتكلم بمودة وأناة ، رافعا بصره الى السماء . وكان رسول الله يبسط هيبة السلطة المتواضعة ، كذلك الأنصار الذين وطدوا روابط الأخوة بينهم وبين المهاجرين الوافدين اليهم من مكة فآووهم في بيوتهم ، وقاسموهم أموالهم ، وهي علاقة بقيت حتى اليوم في الذاكرة المقدسة .

ولقد ظهرا على محمد الآن لشيء أساسي ، فلم يعد الامام الهادي والرسول الملهم فحسب بل أصبح الآن رائدا لأهل المدينة لجماعة المسلمين في يثرب وعند الأوس والخزرج — لاقرار السيادة وأحكم المصالح ، واستجابة لهذه المهام الجديدة ، عقد معاهدة تحالف مع اليهود تعهد اليهود والمسلمون بمقتضاها ألا يضيق أي فريق منهم الآخر وأن يدافعوا عن المدينة ضد أي عدوان . وقد جعل محمد من بيت المقدس قبلة يولي المسلمون وجوههم شطرها في الصلاة ، وقضى بأن اراقة الدماء جريمة ضد الله . كما غير اسم يثرب الى مدينة من الله ، وأمر جميع المسلمين الصادقين بالصيام نبعا

بين الفجر وغروب الشمس شهرا كل سنة ، وهو شهر
رمضـــان ، والامتناع عن لعب الميسر وشرب الخمر ،
وتحطيم كافة الصور المحفورة ، والصلاة خمس مرات كل
يوم ، وأن يرجعــوا إذا رابهم أمر من الأمور إلى الله
ورسوله وألا يستشيروا القداح وغيرها من الوسائل التي
يمارسها العرافون .

بيد أن العهد الذي عقده مع اليهود في المدينة لم يدم
طويلا ، فسرعان ما غدر بعض اليهود بالمسلمين وتآمروا
عليهم ، إذ ظهر أحبارهم أن ما نادى به الاسلام من السماوية
بعد انتشار بعثه برزتهم ، ولم تبق كثيرون منهم إلا من
الحكمة أن ينتصروا لأولاء . وتمكنت الغيرة عند الله
ابن أبي من أن يرأس جموع محمد من أهل المدينة مع أنه قد
تظاهر بالإسلام تماما والتف حوله نفر آخر من المنافقين .
وبدأ الرجال في التآمر مع الكفار في مكة . وفي هذا
الوقت نزل الوحي على محمد ﷺ لـ يلاحق من يبيع ،
الأولى حين أمره الله بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى
الكعبة ، ثم نزلت بعد ذلك آية القتال تعزز الرسول
على قتال المشركين وكان من مبادئ الإسلام .

وبدأ محمد صراعه مع أهل مكة الكفار بمهاجمة قوافلهم
وفي السنة الثانية للهجـــرة دعا رسول الله (ص)
المسلمين إلى اعتراض قافلة مكية محملة بالعطور وقف
على رأسها من التجارة حوالي ألف وثلاث من الذهب
وكان يقودها أبو سفيان وصدمت طلائع قريش النفير ، فخرج
منها ألف رجل للقتال ، ولم يكن في جيش محمد أكثر
من ثلاثمائة من الرجال الأشـــداء واجتمعت القوات
المتعاديات في بدر قرب القافلة . وقد بدأ القتال بمبارزة
بين ثلاثة من الكفار ضد ثلاثة آخرين من المسلمين عقبها

لتقاليد العرب ، وكانت هذه البداية التمهيدية في صالح المسلمين : وعندما خر المحاربون الثلاثة الكبار صرعى نشبت المعركة بين الجيشين وبين صيحات التشجيع من نساء العدو ألقى الكفار بأنفسهم على جيش المسلمين الصغير ، بيد أن المسلمين كانوا يتميزون على خصومهم بإيمان عال ورغبة صادقة في الاستشهاد وأمدهم الله بنصر من عنده فلم يلبثوا أن هزموا الكفار على كثرة عددهم وزاد حماسهم عندما سمعوا رسول الله ﷺ يقول « لا يقاتلهم اليوم رجل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

وسبت قريش هزيمة ساحقة . وفي العام التالي ٦٢٥ دارت معركة أحد التي تعادلت فيها الفريقين ، كانت عدة جيش قريش ثلاثة آلاف رجل ، وقد قتلوا بمناورة لتغلب على جيش عبد الله بن أبي بالانسحاب من الميدان على رأس ثلاثمائة من المنافقين ولكن ذلك لم يسقط هزيمة المسلمين وكان الرسول قد أمر عبد الله بن جبير قائد الرماة بأن يظل مع رجاله على تفرع من الأرض لحماية المسلمين من فرسان قريش . ولكن الرماة خالفوا أمر الرسول فانقض خالد بن الوليد بفرسانه على المسلمين وأصاب منهم مقتلة كبيرة وعلى أثر ذلك ثبت الرسول ﷺ ونادى المسلمين فتجمعوا حوله مرة أخرى وتمكنوا من إفساد خطة أبي سفيان ، وانتهى الأمر بانسحاب المشركين دون أن ينالوا من المسلمين منالا .

وكان الكفار قد تمكنوا في هذه المعركة من قتل نفر كبير من كبار المسلمين ، فحسب الناس أن المعركة كانت هزيمة للمدينة . وسرعان ما نشطت المؤامرات ضد أمة الإسلام

في المدينة ولكن المسلمين انتصروا على أعدائهم في كل مقام

والواقع ان أسلوب محمد ، هو ، في الاحتفاظ بقوته الضاربة الى قتال الأعداء في كل مناسبة برهنت على الحكمة . فمنذ عامين زحف أبو سفيان على المدينة على رأس عشرة آلاف مقاتل في محاولة للإجهاز عليه مرة والى الأبد ، ولكن النبي عمل بمشورة سلمان الفارسي ، على تقوية دفاعات المدينة بحفر خندق من حولها ، واضطر أبو سفيان الى مواجهة حصار طويل . فاستبدت وطأة البرد على المحاصرين ونالت من حماسهم ، واقترن هذا بهبوب عاصفة عاتية ، وسقوط دعامة خيمة من جانب جيوش المهاجمين . نالت هذه العوامل جميعها الى معنوية في صفوف العدو ، وهكذا حارت عزائمهم ، وانقلبت قريش عائدة الى ديارها .

وعقب انصراف المشركين وجموع الأحزاب عن المدينة تبين محمد ان الوقت قد حان لادخال مكة في الاسلام ولكنه رأى قبل ذلك ان يقضي على كل بؤرة لليهود في المدينة نظرا لشغبهم المتكرر وتآمرهم على أمة الاسلام ، وهكذا تم القضاء على جماعات اليهود الكبرى في المدينة وأمن المسلمون على أنفسهم من غدر اليهود .

وكانت خطة محمد أول الأمر هي أخذ مكة سلميا ، ولكن عندما أرسلت قريش قائدا هو الوليد مع قوة كبيرة لاستبعاده ، انصرف محمد الى الدبلوماسية ؛ وأوفد عثمان زوج ابنته للتفاوض مع أبي سفيان ، وقد تم الاتفاق على عقد هدنة تسمح للمسلمين بدخول مكة ، ولكن ليس قبل العام التالي ، ولمدة ثلاثة أيام فقط ، وبدون أسلحة ، وفضلا عن ذلك كان يقضي اذا أتى واحد من

قريش الى صفوف المسلمين .

وبعد ان فتح رسول الله خيبر وكانت معقلا من معاقل اليهود ، واطمأن من كل خطر يأتي من الشمال ارسل بكتبه الى ملوك عصره يدعوهم الى الاسلام ثم تم له فتح مكة في رمضان من العام الثامن للهجرة .

وحينما دخل مكة عفا عمن كانوا يضطهدونه ، وسارع زعماء قريش الى الدخول في الاسلام . وقد عرف محمد بحصافته وذكائه كيف يتألف قلوب اولئك الكفار فدخلوا في دين الله . وقد تجلت هذه الصفات حين اوضحها فيما أصدر من اوامر بصدد الكعبة والحج . ليبين حين حرمها اسوة بالمدينة ثم واضعا من نسل ابراهيم سوف يظهر يوما نبي الله في مكة بتحطيم او ازالة كل أصنام قريش وتحريم كل صور أو تماثيل على هيئة البشر باعتبارها من الوثنية ، فقد أبقى الكعبة قبلة الحج والطواف سبع مرات حول الكعبة .

وبعد فتح مكة اخذت جماعات المسلمين تتزايد بالالوف ، واصبح محمد قادرا على قبول جميع الخاضعين تحت لواء الاسلام .

ولكن في الوقت الذي كان فيه الاسلام يوطد سلطانه على هذه الصورة ، بدت على النبي اعراض المرض . وفي عام ٦٣٢ حج حجة الوداع التي قال فيها : « الا هل بلغت اللهم فاشهد » . وبعد أيام ثلاثة من عودته الى المدينة فاضت روحه الطاهرة . وقد اتخذت ثورة لم يصدقها الناس الخبر ، وتوعد عمر أن يضرب بسيفه كل من يقول ان النبي قد مات . ولكن ابا بكر قال للمتصدفين : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ،

ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . ثم تلا الآية :
« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن
مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » . فانتبه لكلام أبي
بكر ، لم احتاج المسلمون إذا تذكر صفنا للرسول ، صلى
الله عليه وسلم ؟ .

والسؤال الآن هو : كيف استطاع رجل واحد أن يجود
هذه الكثرة الهائلة من أتباعه لكي يتخلوا عن حياتهم الخاصة
على عبادة الأصنام واللات ، مؤثرين عليها حياة صارمة
ومرة قوامها الإيمان الصميم ؟ من المؤكد أن النبي لم
يكن هو مؤامرة أمسه ، لأن كثيرين من معسكر قريش
أنفسهم كانوا كذلك من ذوي الحسب ، وكانوا أرقى ثقافة
وحظاظاً في مكة والحضر . ولا كان النبي هو حالة
الشجاع التي جمعت به من طريق القمر والانتصار . إنما
الجواب واحد : هو الإسلام ، بما قام عليه من إعلان
صريح للتوحيد ، وما انطوت سببه ورسالته الروحية من
دعوة إلى العدل الاجتماعي ، وهي دعوة مسحة بصفة
خاصة قلوب المستضعفين الأعلى في العصر ممن كانوا
مستضعفين في الأرض . وكانت دعوة الإسلام هي الحافز
الأكبر وراء الفتوحات العربية الكبرى التي أعقبت وفاة
النبي . وهكذا مرت دعوة محمد بلاد العرب ، وحولت
العرب الخصوم في الشطر الأكبر من شبه الجزيرة
إلى أمة متحدة منظمة قادرة على الدفاع عن وطنها الأم
وتوسيع حدودها ، كما تجلى في الأحداث التالية ، إلى
أقصى الأرض . ومن خلال القواعد الدينية للعقيدة
غرس في نفوس الأجناس الحاكمة في الحجاز احساساً
جديداً بالمسئولية حيال رعاياها ، وهيأ للجماهير
المحرومة قاعدة جديدة للعدالة الاجتماعية .

ولعل أشد ما يستثير بقلب دارس التاريخ العربي من
جهاد المسلمين الأولين إنما هو ما يلقيه عليه محمد من مظاهر
الإنسانية . كان أكثر الناس فهماً للعصر البشري ، ومن
ثم كان أرحم الناس بالناس . ولقد عزونا عن متاع
الحياة ، ومات وإنه لم يترك سوى درع وقميص وعمامة
وثوب مرقع ولبسة وحلوة من سعف النخيل .
وكان حسبه من العالم ومن النفس بعض كله في سبيل
الإسلام .

وإنه لن كآية في الرحمة حتى للعدو المنهزم ، وأروع
ما تجلى ذلك في مكة والطائف ، حين أقرت قريش
بهزيمتها واستجابت أخوة له في الإسلام .

هذا هو محمد بن عبد الله الإنسان العظيم الذي اختاره
الله رسولاً وخاتماً للنبيين ، والذي أحيى مثله عباد الله
مدعو لتحرير أمام النور الذي كان يعيش فيه ،
والذي أدى رسالة الإسلام التي بعثه الله بها إلى توحيد
العرب في عقيدة دينية توحدها الإيمان بالله الواحد الأحد ،
والذي كشف الله على الآباء والوثنية والجاهلية ، ومكن
لدعوته الخالدة أن تسير بطريق مئات الملايين في كافة
الأقطار والأمصار .

الفصل الثالث :

بـــدايات لاتجـــاهات ثورية

بوفاة محمد عاد العرب الى انماط حياتهم القديمة المتباعدة عن المركزية ، والمتعصبة للاستقلال القبلي ، والمتجافية عن كل سلطة مركزية ، ومن التمثل ما كرة الانظمة المستحدثة التي استهدفت تسيير التنظيم الاجتماعي وما جاء به الاسلام من حظر للحروب فيما بين المسلمين مما عدته جمهرتهم تحديا لرياستهم الآمرة المترفة على مدى الاجيال وحتى التفاخر العقلي التوارث . ونتيجة لمسيلمة والقرب من الهواش ، فانه بعدما اصبح محمد في ذمة ربه لكي يعرف رسالته بقسوة شخصيته ، بدأت القبائل في وسط وشرق البلاد العربية تعبر عنها لواء الاسلام وتطرد الولاة الوكلين بامرهم .

فانا ان ابا بكر انتخب خليفة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقد احب ابو بكر انه اهل لمسئولية التي تولاها رغم على حركة الردة . واستأنفت ثمرة ابي بكر في الثورة العدلة المنصفة واراى الحرب عن الهوى الى حد انه ما ان حلت هذه المحن معلها في النفس واستوعبها .

وتوفي ابو بكر بعد عامين وخلفه عمر بن الخطاب . بيد ان ابا بكر على الرغم من كل رداءته ورقته كان يصد النظم

بحيث تدرك أن أساليب الحفاظ التام لن تكون كافية لرد القبائل الى حظيرة الإسلام أو لدحر الأعداء في شرق البلاد . فإن هؤلاء المتمردين على كل قوة مركزية كانوا يحتقرون اجراءات أشد صرامة للسيطرة عليهم . وهكذا اتجه أبو بكر الى الجندي الذي طبع أثرا نوعا في حروب المسلمين ، وهو خالد بن الوليد ، وأرسله للتعامل مع هؤلاء الأعداء .

لقد كان خالد ، كما بدا منه حتى الآن ، قائدا محنكا ومخططا سليما في التكتيك ، مع شجاعة لا تعرف الخوف وسداد تفكير ورباطة جأش بالغين في أشد المعارك احتداما . ولم يتردد في التسلط على مقاومته بنفس الأسلوب الذي اتبعه في حمل السيف . ولكنه مع ذلك وضع حدودا واضحة في معاملة أسرى الكفار ، فطبق دخولا في الذين عدا عليهم ، والذي أصروا على التكبر عن تصميم الردى .

ولقد أعطى أبو بكر قائده الفذ سيف تراسه زمرة رجال مكة والمدينة ، فاستطاع بهاء و تضمن سمة الحرب أن يرد النهب من الأعداء في شرقي بلاد العرب وأن يسحق من معهم من الخلفاء المتمردين . وقد لقي مقاومة عنيفة من قبائلين ، وهي الأخطر من بين جبهة الذين شنوا الخناق على المسلمين . ولكن خالدا الذي لم تفارقه رباطة جأشه في أي وقت استنفر رجاله وطبعهم عزمين سواء من رجال الصالح أو من أبناء المدر بقصد الإثارة الثانية والحمية بينهم في صفوفهم الصلاة ، ثم تقدم بجيشه .

لقد تم الآن للإسلام إخضاع شبه الجزيرة العربية كلها ، وتحولها الى قاعدة منيعة لنشر الإسلام لقد

أصبح العرب الآن في موقف يسمح لهم بالزحف الى مواطن جديدة . ويبدو أن الشام وفلسطين والعراق هي أقرب وأسهل محط الأنظار . لقد كان لهذه الأقطار الثلاثة أكبر أهمية استراتيجية واقتصادية ؛ وكان بوسع من يستحوذ عليها أن يسيطر على المنافذ المؤدية الى آسيا الصغرى والى مصر وفارس . وقد وجد سكان الصحراء الفاتحون في مدائنها الجميلة ومراعيها الخصبة مغنما أي مغنم . وفضلا عن ذلك فإن الامبراطوريتين اللتين كانتا تحكمان هذه الأقطار وهما بيزنطة وفارس كانتا قد انهارتا في العهد الأخير الى حد انتهى به الوهن الى الجمود بعد أن دامت بينهما الحرب مدى ستة وعشرين عاما في صراع طويل بين هاتين الدولتين المتنافستين . وكانت فارس قد استشعرت لها النشوة أول الأمر عندما استولت عام ٦١٤ على بيت المقدس واسترجعتها من امبراطور القسطنطينية المسيحي . ولكن بحلول عام ٦٢٨ استطاع البيزنطيون طرد الفرس من فلسطين والشام ، وانقضوا فيما وراء نهر الفرات في العراق ، أو كادوا كما كان يسمى وقتئذ ! .

إن هذه الحروب قد استنفدت طاقة الغالب والمغلوب معا . وانتهت بيزنطة الى الإفلاس ، واضطربت الفصائل التي انعقدت الى الأمة ببابه عن محبة وهي تقطع صلتها بالامبراطورية عن شاطئ الحدود المجاورة . كما أن حالة الفوضى سادت بلاد الفرس ، حيث ترتب على هزيمة البلاد قتل كسرى بيد أحد أبنائه بالاضافة الى غيره من الذكور من الأسرة المالكة . وقد لقي قاتل الأب مصرعه أيضا . وتداول على العرش تسعة آخرون من الطامعين فكان مصيرهم القتل هم أيضا أو الاقصاء عن العرش . وكان آخر المتربعين على العرش أميرا في

الخامسة عشرة من عمره على يزدجرد كتب له أن ينجو من الإمارة . وإلى جانب هذا كله فإن حكام البيزنطيين والفرس كانوا قد أثاروا خصومة الغساسنة واللخميين لأسباب دينية كما أثاروا عاصفة من العداء في الشام والعراق بالقضاء على الأسر العربية المحلية الحاكمة وفرض حكام مباشرين من قبلهم ، وهكذا فمن المحتم ، وقد بعث المنذر جزئية بالاستيلاء على هذه الأقاليم ، أن يتجه العرب إثر انتصاراتهم الحاسمة في شبه الجزيرة العربية إلى هذه البلاد ، وأن يتصدوا إلى اقتسام هذه الزوايا الاستراتيجية لهم في أراضي الامبراطوريتين المتهالكتين في الشمال .

ولقد كان العرب منذ بداية صراعهم ضد الفرس والبيزنطيين يعتمدون على ميزة الجمل التي تحظى بها في الصحراء الممتدة الأمر تلك السيطرة الصحراوية . وفي هذا الصدد كان السر هو الصحراء ، وفي حين كان العرب يتمتعون بحرية كاملة للحركة في الصحراء ومن حولها أحدى متاهاتها فيه ، كان الفرس والروم عاجزين عن التحرك في الصحراء عجزا تاما ، فمن ناحية كان العرب يستخدمون الجمال ، في حين كان خصومهم يركبون الخيل التي كان يموت أغلبها في الظروف الصحراوية عند حدوث الأذى . ومن ناحية أخرى كان القضاء على الأسر العربية الحاكمة في الشام والعراق كلف الروم والفرس فقدان معظم جنودهم العاملين في الصحراء بعد سحب الفضل لمأواها ومساعداتها احتجاجا على القضاء على البيئة البدوية الذاتية من الحكم الذاتي العربي .

ولذلك سجل العرب رغم التفوق الفني لجيوش خصومهم انتصارات رائعة على أعظم امبراطوريتين في

تلك العهود ، واستطاعت جيوش المسلمين ان تمت من مراكز الروم والفرس وأن تلتقي في توجيه الرعب الى حد جعل مدالهم وقلاعهم المحصنة بجيشهم واجفة كل الأخرى ، وبهذا ابينوا للعالم ما يمكن ان يصنعه الايمان الخالص والاستبسال الخلاق ضد القوى المتفوقة عددا وعدة .

وعلى الرغم من ان المجهود العربي الرئيسي كان مقررا أن يوجه ضد الشام وفلسطين ، فقد وقع الاختيار على العراق لتكون الهدف الأول لجيوش الصحابة : من ناحية لكونها اقرب الى اراضي المسلمين ومن ناحية اخرى لأن حالة الفوضى المتفشية في ممتلكات الامبراطور الفارسي جعلته يبدو في نظر العرب خصما أضعف من الامبراطور البيزنطي . وهكذا بعث خالد بالحملة الى الحيرة في العراق في مارس من عام ٦٣٣ - وكذلك ترى من الأراضي الفارسية واثناء اول [illegible] الى [illegible] من تحيز وذلك [illegible] اليه [illegible] بعرب الآن بالحدود بين العراق والكويت [illegible] قيادة [illegible] المحارب البدوي المثنى بن حارثة وعلى الرغم من ان بني بكر كان منهم مسيحيون الا انهم كانوا في حالة تمرد سابق ضد الفرس بعد انتهاء الاسرة [illegible] اللخمية في العراق . وهكذا [illegible] الآن الى اعتناق دين الفاتحين المسلمين .

وقد تصاعدت قوة خالد [illegible] اسمها بعد [illegible] التي هبطت منه ؛ وعندما تقدمت جيوش المسلمين في اتجاه وادي الفرات ؛ [illegible] العالم [illegible] في نهر الدجلة والفرات لاعتناق الإسلام او مواجهة الهزيمة والموت . [illegible] كان [illegible] كثيرا جيش

المسلمين إلا أن تقدم للإغاثة . وطبقاً للقاعدة المرعية فقد تصدى جنداً لمبارزته قبل نشوب المعركة العامة ؛ ولكن خالداً أجهز عليه في بدء [illegible] وسحق جيش [illegible] المنهزمين وطاردهم حتى أبواب مدينة [illegible] ذاتها .

ولم يلبث الفرس أن قرروا مقاومة العرب بجيوش ضخمة حشدت من الفرس والعرب المسيحيين لتقدم لدفع الغزاة . ولكنهم كانوا عاجزين إزاء عبقرية القائد المسلم في الحيلة والمناورة . لقد صمدوا جيوشهم وقاموا بالهجوم ، وكادوا ينتصرون عندما أحدث من خالد لأول مرة [illegible] في المعركة ، [illegible] إلا جاء النصر من عند الله [illegible] إلى نهر [illegible] ، ومطاردة [illegible] الفرس من [illegible] وصدوا طوق خالد [illegible] كانت [illegible] في [illegible] قناة جانبية [illegible] .

وعندئذ استأنف خالد تقدمه إلى داخل العراق . وعملا بمشورة معاونه ومساعده الأول المثنى بن حارثة بأن يقاتل العدو في الصحراء حيث ينعقد له النصر ، وإلا بأن يحارب [illegible] الصحراء المجردة والحدود [illegible] ظهرك [illegible] فقد راح [illegible] سائر مراده كلها [illegible] يجري [illegible] على [illegible] من [illegible] على امتداد سواحل الفرات [illegible] حتى [illegible] خطة إلى الداخل [illegible] حركة . وكانت مدينة الحيرة هي هدفه التالي ؛ وبعد حصار قصير الأمد قبل سكانها الذين كانت غالبيتهم من العرب شروط التسليم وهي [illegible] جزية [illegible] في مقابل [illegible] الحرية [illegible] بحماية الدولة ، وكان [illegible] التزايد من جانب خالد ما يبرره ، إذ كانت الحيرة مدينة عربية التعصب [illegible]

قدرة على المقاومة أصلاً ، وكان هدفاً محبباً إليه
لتكون قاعدة لجيشه الذي لم يبق منه في قلب أراضي
العدو . ولكنه لم يلبث بعيداً عن أرض الوطن يعبر
إذ ليس بينه وبين الصحراء سوى الجزيرة
الواسعة . وقد تجلت مخاطر هذا العمق السحيق
لخطوط المواصلات بعد الاستيلاء على الحيرة ، عندما
عرض حيث كان أرسل لنجدته إلى مضايقات
شديدة من بعض القبائل العربية لدى دخوله العراق ،
ولم يخلصه سوى أولئك الذين تقدم خالد الجيش
الإسلامي لتحريرهم .

وقد وجد خالد بعد عودته إلى الحيرة ، أن هذا
المجهول الإداري ، أن الفرس قد استجمعوا قواهم وتأهبوا
لهجوم جديد بالاشتراك مع حلفائهم العرب المسيحيين
في تجميع أكبر من كل ما مضى ، فقرر أن يستخدم خطة
جديدة ويهاجم عدوه ليلاً ، فما أن أخذ الفرس على غرة
حتى تمزقوا وتفرقوا مذعورين . ووجد الآن الفرصة إلى
متابعة التقدم في طريق الفرات لفتوحات أخرى ، تاركاً
جيشه الثاني للإشراف على عاصمته . فتقدم في
وادي الفرات حتى سمع بدءاً أتى بعيداً بالاتفاقية سيل من
الحيرة دون أن يصادف أية مقاومة جدية . وكان النهر
عند هذه النقطة يمثل الحد الفاصل بين الامبراطوريتين
البيزنطية والفارسية . ولأول مرة اتحدت أعداء هاتين
الامبراطوريتين المتنافستين عندما زحفت جيوش العدو
من الروم والفرس حالفاً إلى عبر النهر ويتقدم
لمحاربته ، فحصدتهم سيوف أبطاله ، وعندما عرفت
القوة الشرقية بين الفرات ظفر خالد بانتصار جديد ،
وبعد المعركة ، والياً على العراق أصبح بهذا
الإنجاز .

وفي خلال ذلك كانت الاستعدادات في الحجاز جارية على قدم وساق لفتح فلسطين التي كانت رقعتها من الناحية الادارية جزءاً من الشام والتي اتسم في عرفها الجغرافي، وقد حشدت لهذا الغرض قوة نواتها أربعة وعشرون ألفاً وضعت تحت القيادة العليا لأبي عبيدة الذي كان أحد المرشحين الرئيسيين في خلافة أبي بكر للرسول. وقد قسمت القوة الى أربعة ألوية ، أولها بقيادة عمرو بن العاص لغزو فلسطين بطريق العقبة ، والثاني بقيادة يزيد بن أبي سفيان والوالي على [illegible] والحجاز ؛ وكان عليه أن يزحف على دمشق ، وكان اللواءان الباقيان ال[illegible] تكونان بمثابة قوة احتياطية . وكان كل لواء يضم مقاتلين أشداء مدربين ساهموا في أثناء الردة ، ويضم [illegible] منهم حتى على عهد [illegible] من [illegible] الصحابيين المشهورين الذين حضروا [illegible] في غزوة بدر ، وهكذا لم يكن ثمة أدنى شك في اقتدارهم أو شجاعتهم ، لكن ألا تعتمد [illegible] حماستهم على حكمتهم ؟ [illegible] زودهم الخليفة أبو بكر قبل الزحف بتوجيهات محددة ذكرهم فيها بمسئوليتهم كحملة راية الاسلام في أراضي الأجانب والكفار ، ونهاهم عن [illegible] والأطفال والشيوخ وعدم قطع الحاصلات أو الماشية أو الإبل ، وإلا [illegible] الى الغذاء أو [illegible] أو المرفه ، وأن يدعوا [illegible] ويبسطوا الحكم الصالح بين كافة الشعوب التي يفتحونها .

ولما حدث في العراق كان غزو [illegible] لفلسطين [illegible] ساعد عليه ما [illegible] من سخط ساد بين العرب [illegible] ضد حكامهم ، وقد سار كل شيء على ما يرام في أول الأمر واستطاع عمرو مستخدماً التكتيك الذي أسماه خالد بنجاح ضد الفرس أن يجري في المناطق [illegible] ضد

بالروم قرب العقبة وغزة . ولكنه عندما واصل هو ويزيد الزحف شمالا أخذت مقاومة البيزنطيين تشتد . ثم وجها مستنجدين بعمرو حتى النجدة والجيش منتصف طريق المعروفة عندما كان خالد يقاتل الفرس ، وهي في مؤخرة جيوش المسلمين وفي منتصف الطريق بين فلسطين والعراق ، من ولاية الإسلام . وحين بلغ نبأ هذه المحنة مسامع الخليفة أبي بكر أمر بإرساله إلى نجدتهما . فخف خالد على رأس تسعة آلاف رجل وشق طريقا طوله ألف ميل عبر فيافي ومجاهل الصحراء الشامية الكبرى وسحق جيوش الروم . وعند انضمامه إلى جيش عمرو هزم الجيشان العرب بيت المقدس في شهر يوليو من عام ٦٣٤ ، استطاع أن يهزم جيشا مشتركا من الروم ورجال القبائل المسيحيين يقدر بثلاثة آلاف رجل .

وأصبحت دمشق كلها الآن مفتوحة أمام الفتح الإسلامي . ولكن جيوشهم لم تستمر في الزحف لسقط دمشق بسبب تعثر جيوش المسلمين وحاجته في العراق بعد أن سحب خالد منه الجيش فتحرك عمرو من فلسطين وذلك بسبب خطر أي تقدم لاستمرار الفتح الرابة من الإسلام الى بلاد الشام في حرب جيش المسلمين . وقد انتهز الفرس هذا الوضع وشنوا هجوما مضادا في نوفمبر عام ٦٣٤ استطاع فيه بالقيادة الأعداء الزحف في صفوف العرب مما حدا بالقائد الفارسي وحفزه أن يتغلب على المثنى ابن حارثة نائب القائد وأن يطرد جيشه إلى خارج وادي الفرات بعد مجزرة رهيبة . وقد أدى هذا إلى دفع الخطر عن رجال القتال الوافدة ، وصلت التعزيزات القوية الوافدة من الصحراء فيها المثنى أن يعيد انتصاره في العام التالي عند البويب (قرب الحيرة) وهزم أخرى رد الفرس ومعهم عدد أوفر عليهم .

وفي هذه الاثناء كان خالد في اتجاهه جنوباً ضمن انضمامه
الى دمشق الواقعة في سهل خصيب والتي كان استيلاء
جيوش الاسلام عليها يمثل غنيمة كبرى . وقد استطاع
خالد ان يبدأ وثبته الزاحفة من فلسطين الى
غوطة بلوغ مدنيه في شهر مارس من عام ٦٣٥ . وبعد
حصار دام ستة أشهر ، وبمساعدة من بعض رجال الحامية
المحليين ، فتحت دمشق ابوابها . واستسلم حاكمها
البيزنطي .

وعملا بتوجيهات ابي بكر تعوده عند الزحف ، كانت
شروط الاستسلام ، التي قدر ان تصبح نموذجا يحتذى
في الفتوحات الاسلامية المستقبلية ، بالغة الرفق بالنسبة
للسكان . فقد منحهم خالد حق حماية كنائسهم وممتلكاتهم
وانفسهم ، وزودهم بالاعفاء من سور مدينتهم ، ويدفع
ابوابها تحصينها في يومهم ، وكانت تلك الجزية لقاء
بتأمينهم الا الحرب

كان ذلك في الحق حدثاً بارزاً المسابقة : بالتأكيد على
المزايا والامتيازات التي سيجنيها الفتح الاسلامي في مقابل
اداء الجزية ؛ وبغير اية دلالة على ان غير المسلمين
ولا العرب سيعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية .
والواقع ان هذا الاعلان لم يحسن حظ الغاية منه في
تسليم دمشق للفاتحين المسلمين ؛ بل ان ما قام عليه من
مبادئه وتسامح كان له كذلك اعمق الاثر في نفوس
الشعب المسيحي في الشام ؛ الى حد ان جيوش العرب
وجدت امدادات حلفاء لها في كافة ارجاء الاقليم . وكان
مقدرا ان تؤتي هذه المعاهدة ثمارها الجزيلة باسرع مما
كان خالد يتوقع ، ذلك انه بعد ان رابطت الزحف
والاستيلاء على حمص وبعلبك ، اندفع جيش بيزنطي جديد

يتراوح بين مائة ومائتى الف تارما من الأناضول والتسح نوات الخليفة وردها الى نهر اليرموك في فلسطين . ومعه في بيان صدى سبة السلبي اماه خالد وابي عبيدة الجزية لأهل البلدان التي كانوا يحلون منها باعتبارهم انهم لم يستطيعوا الوفاء بما التزموا به من حماية السكان . وهكذا كان المسلمون في ارتداعهم بجنودهم بجلال المقاتل في تركيز على استعداد مساعدتهم بالقوى والحصن بكل محافظة للروم .

وفي اغسطس عام ٦٣٦ توقف خالد عند منحنى نهر اليرموك بالأردن . وقد أجريت المعركة التي شنت بعد ذلك بحرية خالد في التحليك . فقد استمر الى اقصى حد حروب عاصفة برايه عسعه واخفى خوانه الاقل عددا من قوات العدو عن هذا العمر اطلق اعنته العاصفة وانبعثت في صفوفهم الفزع والفوضى والرعب . وفي هذه المعركة قاتل المسلمون كما لم يقاتلوا من قبل وعند ملكت دائرة الرعب ثلاثة أيام الى أن ابيدت الجيوش البيزنطية عن بكرة ابيها وقتل قائدها . ولم يعد لدى الامبراطور هرقل الذى جاء الى انطاكية لاشراف على المعركة التي كان يعلم انها ستفقده الشام الا ان ينسحب عائدا الى القسطنطينية .

هكذا خرج الاسلام من معقله الصحراوى . فقد فتح العرب العراق وفلسطين والشام . وسقطت دمشق وبيروت وحمص وانطاكية وحلب وصيدا تحت حكم باسم الخليفة في مكة .

وقد استدعى خالد الى المدينة بعد ان اعاد فتح دمشق وكان ذلك في عهد عمر الذى تولى الخلافة عام ٦٣٤ بعد وفاة ابي بكر . وعين ابو عبيدة واليا على الشام ، وبعد

أبى عمرو بن العاص بالاستيلاء على بيت المقدس التي لم يفتحها العرب بعد دون كل فلسطين ، ولكنها الآن كانت ثمرة ناضجة ، ولم تلبث أن سقطت دون قتال في ربيع من عام ٦٣٧ . وهنا كانت شروط الاستسلام مطابقة لما كان في دمشق . ومرة أخرى تعهد المسيحيون على الا شروط الجزية مضاعفة ، وأن تصان كنائسهم ومعابدهم ، واستجابة رجاء بطريق الروم المهزوم صوفرونيوس ، جاء عمر شخصيا لترسيم المعاهدة ، وخلع الحشمة المزدانة بالملابس الفاخرة من القادة المسلمين الذين كانوا في استقباله وصرخ عند أبواب المدينة غاضبا في الواقفين : بقولي أسلامكم وهو في ثوب مرقع وعلى ظهر حمار .

وهنا كان خالد قد أعفي منذ وقت من قيادة جيوش المسلمين ، فلعل عمر أراد بهذا أن يحسب الناس في مكة وفي البلاد التي فتحها الإسلام حديثا صحبة الظن بأن الفضل في نجاح الجيوش الإسلامية يرجع الى خالد لا إلى مشيئة الله . وقد كان عمر لا يعرف المهادنة في توطيد دعائم الدين . وقد كان عمر هو الذي قال : لا أحد مثل العرب مثل جمل أنف اسلم قائده فلينظر قائده حيث يقوده . وأما أنا فورب الكعبة لأحملهم على الطريق ، وهذا ما نهجه .

ذلك أن عمرا هو الذي وضع القواعد التي أراد بها النبي أن يحكم المسلمين . فقد لاحظ بعد وفاة النبي أن الصحابة كانوا يفقدون ، فقضى زيدا كاتب النبي بجمع القرآن ووضعه في المصحف مرتبا حسبما كان الرسول يتلوه على لسان جبريل منزلا من عند الله . وأصبح القرآن والحديث مصدر الشريعة الإسلامية التي تنظم حياة المسلمين في العبادات والمعاملات .

وبعد وفاة عمر وجدت نسخ أخرى متداولة ، فعمل خليفته عثمان على إيجاد نص واحد رسمي ، وفي عام ٦٥١ عين زيد لقيام بواجب المراجعة ، وجمع النص الرسمي للقرآن نقلا عن الأصل الذي وجد عند حفصة بنت عمر إحدى زوجات النبي ، فظل القرآن الكريم عبر القرون كتاب الله الخالد ومجسدا لكل علوم الإسلام وحكمته ولكل ما في اللغة العربية من بلاغة وبيان .

وكان إحلال الشيخ الماهر محلا أحسن هو وضع الأساس لنظام تعليمي . وكان أوائل المعلمين في العصر الإسلامي هم قراء القرآن الذين بعث بهم عمر رسلا إلى كافة أرجاء بلاد العرب . وكانت أولى المدارس هي تلك التي أقامها أولئك المعلمون في المساجد ، حيث كان يدعى الناس في كل يوم جمعة مساء وصباحا إلى الخليفة للاستماع إلى ترتيل القرآن . وقد ظل نظام التعليم العام مقصورا على هذه المدارس الدينية طوال المائة عام التالية أو يزيد ، ولذلك أن الطبقات الحاكمة في تلك الفترة مع بعض الاستثناء ، لم تحرص على رعايتها للتعليم ، وكانت تعد الصحراء ، التي كانوا يرسلون أبناءهم إليها للتعليم ، هي أفضل المدارس ، لعلها كان الشباب يتلقى كل ما يجد صالحا له ـ اللغة العربية الفصحى المبكرة إلى جانب طائفة من مقومات الرجولة مثل الفروسية والسباحة والرماية بالسهام . وفي عهد الخليفة عبد الملك ، عين مربون خصوصيون من البلاد الأجنبية لتعليم قواعد اللغة العربية . وما لبث أن تبرز من الأطباء في الشام ممن يبحثون في الكيمياء والطب بالاعتماد على المصادر اليونانية والفارسية .

وهكذا ظل القرآن والمسجد هما الأساس للتعلم منذ

العرب ، الى أن جاء الخلفــــاء العباسيون فبدأ عصر التعلم الكبير في القرن التاسع بما أثاروه من الاهتمام بالتعليم العالي والعلوم ؛ بعد أن ظل اهتمامهم مقصورا على مبادىء القراءة والكتابة وقواعد اللغة والشعر والحساب البسيط .

الفصل الرابع :

فتح فارس ومصر

ترى ما هي القوى التي كانت وراء الفتوحات العربية والتوسع خارج شبه الجزيرة ؟ هل كانت الحوافز الدينية وحدها هي التي دفعت إلى هذه الموجة الكبرى ، أم كانت لأسباب أخرى اقتصادية واجتماعية كما ذهب إلى هذا بعض المستشرقين ؟ في هذا الصدد يقول الجنرال جلوب في كتابه « الفتوحات العربية الكبرى » : « إن الضغط السكاني والضرورات الاقتصادية ما كان يمكن وحدها أن تولد مثل هذا الانفجار البركاني . كان الأمر يتطلب نزعات روحانية ومثالية عميقة معقدة لتسويغ مثل هذه الثورة المتفجرة » . وعلى هذا كان أصحاب المؤرخين العرب الذين صوروا هذه الأحداث الجسام بأنها تسلسل طبيعي بعثت عليه الحماسة الدينية ودوافعها الخالصة .

والواقع أنه لم يكد يتم فتح الشام وفلسطين حتى أصدر عمر أوامره للقيام بهجوم جديد ضد الفرس في العراق . ففي عام ٦٣٧ ، وبعد أن توفي المثنى متأثرا بالجراح التي أصيب بها في معركة الجسر ، أرسل عمر واحدا من أصحاب الرسول في مرتبة بلغ — وهو سعد بن أبي وقاص — على رأس جيش يربو على ثلاثين ألف رجل ، معززا بجماعات من القبائل العربية ، للهجوم والاستيلاء على

العاصمة الفارسية طيسفون .

ولكن الامبراطور الفارسي يزدجرد شابا حاد الطبع عصبيه وحين وفد من العرب في ملابس خشنة من قبل سعد يدعوه الى اعتناق الإسلام ؛ فتجاهل نصح رستم وتحديره وامر جيشه بمهاجمة المسلمين القادمين . وكما ادرك قواده الاولى حكمة انه ما كان ممكن ان يدفع نفسه حتى ملقا في ايدي العرب ؛ اذ بدلا من المطاردة بقواته في المناطق الكثيرة بالصحراء ، كان ينبغي له ادخارها خلف الاستحكامات الحصينة لعاصمته واستدراج العرب الى خارج معاقلهم الطبيعي في الصحراء . بيد أن طيش الامبراطور الشاب احال تعقله منه . وفي شهر مارس من عام ٦٣٧ خرج الجيش الفارسي (عشرون الف رجل) لملاقاة المسلمين عند القادسية على بعد أميال قليلة غرب الحيرة في وادي الفرات . ومن مفارقة القدر أن رستم [illegible] مقاتل على ظهر [illegible] باشر بنفسه ادارة العمليات عندما اخذ جرحه الذي قيل انه كان يرد على المائة التي يحط على القرية . وقد احتدمت المعركة مدى اربعة ايام ، وفي اول الامر كانت الكفة المحددة للفرس شديدة الوطأة على العرب . ولكن عندما بدا رماة جيش سعد في تصويب سهامهم الى اعين الفيلة ؛ اخذت الحيوانات التي امامها الرعب تتخبط على غير هدى وتدوس على صفوف رجالها . ولقد أدى وصول مصرعه بشاهد العرب لدى الهجام الاخيرة لهذه الزية النتاجة ؛ فتحطمت صفوف الفرس ولاذوا بالفرار تاركين ثمانية حرساء على ارض المعركة للمنتصرين .

وهكذا كانت هزيمة الجيش الفارسي الشامخ الذي رد الجيوش البيزنطية منذ سنوات قلائل الى ابواب القسطنطينية على ايدي رجال القبائل العرب . وقد

أصبحت العراق بأكملها الآن تحت أقدام الجيوش الإسلامية ، وبخلاف الشام في الشمال حتى جبال طوروس ؛ ولم يكن الآن سوى بين الإمبراطوريتين الكبيرتين . وقد لم يوجد من [illegible] ؛ وبانهيار القبائل المسيحية في الشمال أي صعوبات المسلمين بأكملهم ؟ سوى بعد من العاصمة البيزنطية .

أخذت الامبراطورية الفارسية الآن تترنح ، ومع أن سعدا أراد مواصلة الزحف إلى خراسان عبر جبال زاجروس ، فقد طالبه عمر بالتوقف خشية أن يتجاوز العرب حدود طاقتهم ويتعرضوا لخسران كل ما ظفروا به حتى الآن . وفي عام ٦٣٨ أصبحت مراكز حربية جديدة في البصرة والكوفة من وادي الفرات ، وأصبحت الكوفة بأمر الخليفة عاصمة العراق بدلا من [illegible] .

على أنه بعد ثلاث سنوات اقتنع عمر بأنه لن يهدأ أولا قبل [illegible] يزدجرد يجيش كل [illegible] لإخراج العرب . وهكذا انطلقت جيوش المسلمين مرة أخرى فتم الاستيلاء على الموصل عام ٦٤١ ، ثم تحولت الجيوش العربية شرقا عبر جبال زاجروس ، وعند نهاوند على حدود أذربيجان هزموا جيشا جرارا للفرس منذ ثلاثين [illegible] في المعركة [illegible] لما [illegible] طارد العرب فلولهم شرقا . وبحلول عام ٦٤٤ اجتاح الجيش الإسلامي المظفر ثلاثة أرباع أراضي الهضبة ووقعت تحت حكمه في ولايات : فارس ، في الجنوب الغربي ، وفي خراسان الشمال الشرقي ، وفي أذربيجان في الشمال الغربي . وقد أصبحت هذه الفتوح الجديدة تحول الفرس من دين إلى [illegible] الواحد ، بعد [illegible] الفرس عبادة النار معتقدات زرادشت وتحولوا لاعتناق الدين الإسلامي .

وفي خلال ذلك كانت الجيوش الاسلامية تتجه اتجاهها الى الغرب ، وكانت مصر تجتذب العرب كما اجتذبتهم الشام والعراق لأسباب اقتصادية واستراتيجية ، اذ كانت مصر احدى الممتلكات الثمينة للامبراطورية البيزنطية ، حتى كان الروم يعدونها مصدر المحاصيل الرئيسي لهم ، ومن الناحية الاستراتيجية كان من الامور العجيبة انتزاع مصر من ايدي البيزنطيين ، بسبب قربها الحجاز بصورة لا تبعث على الاطمئنان ، ولأن وجود ميناء الاسكندرية كاحدى القواعد الرئيسية للروم جعل في مقدور اسطولهم البحري تهديد جيوش الاسلام المجاهدة في فلسطين والشام . وعكس ذلك لو تملك العرب مصر لتيسر لهم امر قاعدة تمكنهم من مزيد من التوسع داخل الاراضي التي يحتلها البيزنطيون على امتداد ساحل افريقية الشمالي .

وهكذا كانت الخطوة التالية بعد الشام وفلسطين هي الى افتتاح مصر . وفي عام ٦٣٩ اوفد عمرو بن العاص على رأس جيش صغير قوامه اربعة آلاف من الفرسان – ضوعف بعد ذلك الى عشرة آلاف – لادخال مصر تحت راية الدين الاسلامي .

وعند دخول عمرو ، كما حدث في العراق ، باستقبال حار من الاهالي الذين عانوا طويلا في الاراضي المصرية ، وتلقاه الاقباط بالترحاب اذ كانوا يعانون من اشد القمع على يد الطغاة البيزنطيين بسبب رفضهم التحول الى مذهب الكنيسة الارثوذكسية الرومية ، ولما اشتهر به المسلمون من تسامح حيال الديانات الاخرى .

وكان الهدف الاول لعمرو هو حصن بابليون البيزنطي الكبير الذي كان قائما في موقع القاهرة الحديثة . وبعد

ان تتقدم على امتداد الساحل من برقة واتجه الى الداخل
حتى وصل النيل ، انضمت اليه تعزيزات من المدينة ، و
واجها جيش الروم في يوليو عام ٦٤٠ حيث هزم البيزنطيين
هزيمة ساحقة باضطرارهم الى داخل الحصن .
ولكن الحامية البيزنطية صمدت للحصار بعد كل مرة اثناء
الحرب وحتى آخر العام . ولكن ما ان جاء الى علم
الحامية الرومية ان امبراطورهم هرقل قد توفي في
القسطنطينية حتى تخلت الحامية عن القتال . وقد سمح
لهم في مقابل تسليم الحصن بامتيازات بكل ما فيه من مؤن
بالانسحاب عبر النيل تحت راية الهدنة . وبعد اربعة اشهر
كان عمرو يزحف خلال الدلتا ويطرق ابواب الاسكندرية .
وبعد اربعة عشر شهرا اي في نوفمبر عام ٦٤١ انتهى الموقف
بالصلح ، بعد ان ادرك رجال الكنيسة ان سياسة التسامح
والسلام الاسلامي افضل بعد حملات البلاد كلها ضده .

وحينئذ استسلمت الاسكندرية بالشروط المعتادة —
حرية العبادة للمسيحيين واليهود في مقابل الجزية
والخراج ، وسمح لحامية اسبرطي بالانسحاب بحرا
الى القسطنطينية . ومن ذلك العهد كانت عاصمة مصر
وهي الاسكندرية لا تسبقها سوى القسطنطينية جمالا
وثراء . فقد اشتهرت بقصورها وحماماتها من ابيرودوس
درها وبيزنطة ؟ ومن ملعبها من الفاتحين الاغريق اللذين
اسسوها . كانت منارتها متعددة سطح منارتها الشهيرة
فاروس التي كانت تعكس اشعة الشمس نهارا وتنيرها
بالوقود ليلا . ومن امثال المسلات التي تعرض
الآن في سنترال بارك بنيويورك وعلى رصيف نهر
التيمز في لندن ، وكذلك العمود الذي شيده تكريما
تكريما لبوليوس قيصر . ولا عجب اذا كان عمرو قد كتب
الى الخليفة يبلغه بانه استولى على مدينة تجل عن

الوصف : بعد نيفا من اربعة آلاف من المقاتلين وأربعة
آلاف حصان ، وأوحى إليهما من ايمونه صوت بوجود
العربية .

وبعد ان تم احتلال مصر كلها حتى حدود النوبة ،
واخضاع برقة ، جعلها تابعة لمدينة شواطئ البرقة
لنظام الجزية . وقد أبدى عمرو عبقرية في التدبير الإداري
عندما شرع في دعم إداراته ، وبنى عاصمة جديدة
سماها الفسطاط ، هي الآن مصر القديمة ، فوجد يوصي
حيث كانت القناة الفرعونية القديمة تصل النيل بالبحر
الأحمر . وقد بقي عمرو حاكما عسكريا ، وظل كذلك
حتى اعتزاله ابن ... أي سرح وهو ابن ...
في الرضاعة . ولكن بعد ثلاث سنوات لعدم عودة ...
سوابة ...

وقد طلبه عثمان ... ، وهي ...
أهل الشورى الذي احترق ... وهو ...
وكان من أوائل أعماله استعادة عمرو من مصر ...
أخيه في الرضاعة عبد الله وإبقاء مكانه . وفي عام ٦٤٤
استولى الروم الاسكندرية ، ... عثمان بإعادة عمرو
لاستعادة المدينة . وبعد أن تم ذلك طلب منه البقاء في
قيادة الجيش مع بقاء عبد الله عاملا على بيت المال ، ويظهر
أن رفض عمرو هذا الوضع ... عبد الله واليا على مصر

وعلى هذا النهج سارت السياسة الحاكمة في اسناد
الأفراد بالوظائف ، خصوصا من كانوا من بني امية ؛
حتى تعد غيرها كافة الوظائف الكبرى في الحكومة

والجيش ، مما كان مثارا للنقد والسخط والزراية .

وبعد عشر سنوات من قيام الحكم قلب عثمان إلى علي بطلب عقد المشورة وكان متعجبا من هذه الحالة ، فكان من رأي من له على الخليفة أن يعمل على إصلاح البيت ، لكن سلاح الدقيقي . فدعا الخليفة إلى مؤتمر من ولاته في الأقاليم ، ونظر عثمان لم يمض ولكن لم يجاوز التماثل من صبره وبدأت نذر الثورة عليه

ولم يمض الشهر تلاتل حتى ثار أهل الكوفة ، ولكن ثورتهم أخمدت ، بيد أن روح الثورة سرعان ما انتقلت إلى مصر ، حيث قام المتمردون بزعامة محمد بن أبي بكر بخلع الوالي عبد الله بن أبي سرح - وفي عام ٦٥٦ زحف جند مصر إلى المدينة ، وتقيم على ولائهم من المتمردين على عثمان فلم يسمحوا له بالخروج من بيته : وترك ولداه الحسن والحسين حراسة دار الخليفة .

كانت المدينة لا تمير حامية تسهر على حراستها في هذه الفترة ، وكان معظم من أهلها قد غزوا من الحجاز عند اقتراب الثائرين ، وهكذا تمكن المتمردون من محاصرة دار الخليفة ، وكان عازما حمله على التنازل وبعد أن قطعوا عنه الماء . ولم تؤد المفاوضات إلى نتيجة ، فتسوروا البيت من الخلف ، وطعن محمد بن أبي بكر الخليفة حتى أجهزوا عليه ، وبعد ثلاثة أيام دفن عثمان وهو بملابسه المخضبة بالدماء ، وكان ذلك إيذانا بفتنة كبرى .

الفصل الخامس :

الحروب الأهلية

بينما كانت الثورة ضد عثمان تتجمع في العراق ومصر ، وكان العرب قد عبروا حتى دولة الفرس واستولوا على الروم وعلى الشام ومصر ثم زحفوا إلى تونس وهزموا جيشا كبيرا للروم جنوب قرطاجنة عاصمة شمال أفريقية البيزنطية . وفي الشمال استولوا على قبرص وطردوا أسطول الامبراطور ودمروا الأسطول البيزنطي على مقربة من شواطئ الأناضول . ثم زحفوا إلى أرمينيا ووصلوا حتى البحر الأسود ودنوا منه قريبا حتى مسافة أميال قليلة من القسطنطينية . وفي الشرق كسروا الجيوش الفارسية وأسروها وأخضعوا من خراسان السيطرة على أفغانستان وتركستان . ومنذ مقتل كسرى يزدجرد عام ٦٥١ كان ذلك إيذانا بنهاية الدولة الفارسية التي ظلت مزدهرة مدى اثني عشر قرنا .

ولكن قوة الدفع في حركة التوسع الإسلامي ما لبثت أن توقفت بمقتل عثمان . وأصبحت العداوة التقليدية بين الأمويين والهاشميين أكثر دموية ، ولجأ العرب من قتال أعدائهم إلى الاقتتال فيما بينهم : وفي النزاع قتل طلحة والزبير . وأصبح علي بن أبي طالب هو المرشح الرئيسي للخلافة نودي به خليفة ؛ وقد طالب الأمويون بثأرهم من علي . وتزعمهم في ذلك معاوية بن

امر [illegible] الذي استطاع من خلال وجوده والبا وقائدا [illegible] التي [illegible] عشرة سنة ان [illegible] ادب [illegible] بسكينة المتنبي . وكان اول عمل [illegible] في اسباب التحدي الخليفة الجديد [illegible] المحسن [illegible] في مسجد دمشق [illegible] وعندما [illegible] على يطلب [illegible] بورقة [illegible] .

ولم يستطع [illegible] يقطع رأي في كيف يعالج هذا التحدي ، [illegible] في مثل هذا الموقف كان خطرا [illegible] ذلك اقرب الى [illegible] بعد ان وجدت [illegible] العودة الى الكوفي . [illegible] العراق [illegible] الثورة [illegible] ، ومع ذلك كان رد الفعل [illegible] على كل هوله ولاة [illegible] عن [illegible] ومصر

[illegible] للعمل [illegible] الى الكوفة [illegible] . [illegible] قبيلة بني بكر : [illegible] [illegible] باسمه الخلافة [illegible] وجمعوا له جيشا توانه [illegible] . ولكن على كره مواجهة [illegible] خلافة [illegible] . ولكن اختار [illegible] بالمواضعة . [illegible] الحركة [illegible] وقعة النخل . [illegible] الزبير [illegible] الحرب ، واصدرت [illegible] الى المدينة [illegible] بعد ذلك [illegible] في السادسة والستين .

وعندما [illegible] جيش العراق [illegible] خدمة غير [illegible] في

الشام فكان عليه أن يصحب حساب معاوية الذي رفع
رايته لمصرع عثمان القتيل بأنه لم يقتص من قاتليه من
أنصار الأمويين ، ولم تجد إلى محاربته من [illegible]
الدافع الجديد في البحث الأخرى إلا صاحبه في معركة ،
وهي المعركة التي [illegible] زحف إلى الشام ، وفي [illegible]
من عام ٦٥٧ التقى وهو على رأس جيشه مع جيش
جيش معاوية من أهل الشام بسهل صفين على ضفة
الفرات . وقد أشرف على على الانتصار [illegible]
عمرو بن العاص أحد الدهاة من جيش معاوية في خدعة
هي رفع المصاحف فوق رماح الجند ، [illegible]
وحال على عن القتال بعد أن [illegible] قواده [illegible]
الذي أوجد لها [illegible] إلى التحكيم [illegible] . وقد
انتهى [illegible] إلى الاتفاق على [illegible]
كما هو [illegible]

وعندما اجتمع الحكمان بعد سنة أشهر [illegible] معاوية
على شيء [illegible]
عمرو صديق معاوية [illegible] من [illegible]
من [illegible] ، ومن [illegible]
[illegible] بالخلافة ،
وقد كانت [illegible] قصة [illegible] ،
كان فيها معاوية مسيطرا على الشام ، وعلي مسيطرا على
العراق وفارس ومصر والحجاز .

ولم يستطع معاوية أن يشرع في فصل عرى هذه الأقاليم
الأخرى للكوفة ، فبدأ بمصر التي أرسل إليها عمرو بن
العاص مرة أخرى مع قوة من الأمويين حيث [illegible]
[illegible] من قبل معاوية . [illegible]
من ناحية مصر وزحف على شمالي العراق ، في حين كان

جعل الخارجة تقف موقفاً سلبياً ، وكانت الخطوة
التالية هي الزحف الى العراق ذاته ؛ واستطاع
معاوية اثارة اهل البصرة على الخليفة ، كما ارسل قوة
من ثلاثة آلاف رجل الى المدينة ومكة ؛ حيث اعتلى
قائدهم المنبر وتوعد بالموت كل من لا يقسم بالولاء
لمعاوية

وبحلول عام ٦٦٠ ادت هذه الغزوات الأموية الى
انحسار رقعة سلطان علي حتى انحصرت على جزء
صغير من العراق حيث الكوفة مركزه ، ونادى معاوية
بنفسه خليفة في بيت المقدس ، واخذ انصار علي يتخلون
عنه سريعاً او ينضمون الى الأمويين او يلوذون بالاعتزال ،
وفي هذه المرحلة ظهرت في العراق طائفة جديدة من
المتشيعين سميت « بالخوارج » ، وقد رفض هؤلاء
الاعتراف بكل من في ارض معركة صفين ، واقسموا ان
يغتالوا في وقت واحد الخليفة في الكوفة ، ومعاوية في
دمشق ، وعمرو بن العاص في مصر . وقد تحرك علي لاستئصال
هذا التحدي لـ « العهد » وهاجم معسكر الخوارج في
نهروان . لكن على الرغم من انه انزل بهم هزيمة ساحقة ،
فقد رفض هؤلاء الخوارج التسليم ، وفي يناير
عام ٦٦١ هاجم واحد منهم الخليفة بسيف مسموم قرب
مسجد الكوفة . وجرح آخر لكن معاوية في دمشق ،
وفي مصر اخطأ الثالث عمرو وقتل شخصا آخر ،
وهكذا بقي معاوية وحده في الميدان .

***

في الوقت الذي استشهد فيه علي على هذه الصورة ،
كان معاوية حاكما لا ينازعه احد في الشام ومصر وشبه
الجزيرة العربية ، وبدأ يلحق بها العراق ، وكانت

الكوفة وخراسان هما اللتان لم تعترفا بحكمه ، ولكن ذلك لم يدم طويلا .

لقد اختار أهل الكوفة الحسن بن علي خليفة إثر وفاة أبيه ، ولكن سرعان ما رأى الحسن أن يجعل مقره في العاصمة الفارسية القديمة طيسفون ، ثم أرسل جيشا من الكوفة ضد معاوية ، ولكن عندما ترامت الشائعات إلى طيسفون بهزيمة هذا الجيش ، تنازل الحسن بالخلافة لصالح معاوية ، وانسحب إلى المدينة حيث الزم بيته ثم مات بعد قليل .

لقد نقلت الآن عاصمة الخلافة رسميا إلى دمشق ، حيث ظلت بها طيلة تسع وتسعين سنة . كما أن معاوية اضطلع بإصلاحات إدارية معينة استهدف منها تنظيم حكومة الدولة وتحديثها . كانت دولة الإسلام حتى وقتئذ مقسمة إلى وحدات إدارية أو ولايات مطابقة بصفة عامة لتقسيمات الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية . وكانت كل من بلاد الشام وفلسطين والعراق ولاية قائمة بذاتها وكذلك كانت العراق ، وخراسان ، والبحرين وعمان ، وشرق فارس ، والحجاز ، وأرمينيا ومصر ، وشمال أفريقيا ولايات لها عمالها ، وأخيرا اليمن وجنوب البلاد العربية ، فجعل من هذه التقسيمات القديمة العديدة خمس ولايات : ولاية العراق ، وتشمل الشام وشرق البلاد العربية وقد وضعت تحت إشراف وال واحد وجعلت الكوفة عاصمة لها . وبالمثل جمعت الحجاز واليمن وجنوب البلاد العربية في ولاية واحدة . ووسعت ولاية أرمينيا لكي تشمل الإقليم المعروف فيما بين مجرى الدجلة والفرات ، ووضعت كل من مصر وشمال أفريقية وغرب وشرق فارس في ولاية واحدة .

وكان معاوية أيضاً هو أول خليفة عمل على تقويض
سلطة . ثم نظم وظائف الحكومة الثلاث وهي الإدارة
السياسية وجبايـــة الضرائب والأمنية مركزة في يد
حكمه ، وكل عهد بكل منها إلى عامل معين . وأصبح
الولاة أمراء في معنى نواب له في نطاق ولايتهم دون
الرجوع إلى دمشق . وبدلاً من تعريب سجـــلات القضاء
[illegible] الخشبية [illegible] كما كان يفعل أوائل الخلفاء
[illegible] مستعينين في [illegible] أرجاء الدولة ، [illegible]
[illegible] دواوين حكومية ، ومنشئاً للبريد وحفظ الوثائق
[illegible] واجهة [illegible] المراســــــلات الشرعية وضمنها
[illegible] على الوثائق الرسميـــة .

وفي عصر الوليد شرع معاوية في تشييد أول أسطول
للدولة العربية في المشرق ، فقدما دار حتى في [illegible]
[illegible] إلى دمشق حيث أبدى [illegible] الكثير ، وبعد
[illegible] ولاية الإمبراطورية الشرقية بكاملها عليه . وقد
[illegible] إلى [illegible] لا يمكن [illegible]
ولا سيما [illegible] عليه معاونة الإمبراطورية أنها خطر
[illegible] ، [illegible] يرجع إلى [illegible] ولايته المتفسخة ، شكل
[illegible] أول قـــوة للشرطة في الإمبراطورية العــــربية
[illegible] في نصب الســـيـه المصرين للحسين بن علي .
وقد كانت سيـــاسة القمع التي انتهجها تؤدي إلى [illegible]
[illegible] معاوية على الأقاليم الشرقية كلها .

وبعد أن اتخذ معاوية مبنيه على القاعدة الداخلية
[illegible] الجيوش العربية في الهجوم في جميع الاتجاهات مرة
أخرى ، ففي جهة الروم استأنف السيطرة البحرية التي
[illegible] منذ الاستيلاء على الســــواحل البحرية
[illegible] إلى الإســــكندرية وقبرص وتدمير الأســطول

للبيزنطيين لقيام العرب بالإغارة على صقلية ورودس والإبحار حتى الدردنيل لمهاجمة القسطنطينية ذاتها ، وإن لم يتيسر لهم النجاح في هذه الحملة المنجمة . وفي الشرق عبر العرب نهر جيحون إلى تركستان واغاروا على بخارى ، واوضحوا سمرقند مع زعماء القبائل في افغانستان تحت سيطرة الإسلام ودعموا حكم المسلمين حتى ضفاف نهر السند . وفي افريقية عهد إلى عقبة بن نافع ابن أخ عمرو ، بتعزيز حدود الامبراطورية غربا إلى أبعد حد ممكن ، فلاقى أنه حتى ذلك الحين ، وبسبب حاجة العرب إلى قاعدة لهم أقرب من الفسطاط في مصر — وهو ما يعني وجود خط للمواصلات طوله ألف وخمسمائة ميل تحت رحمة [illegible] وهجمات مستمرة — كانت الجيوش العربية التي تصل إلى أية مسافة على امتداد الشاطئ الافريقي تضطر إلى العودة . ولذلك فقد قام عقبة في عام ٦٧٠ بإنشاء العاصمة العسكرية الحصينة وهي القيروان في تونس ، في منتصف المسافة بين مصر وبين أقصى نقطة لشمال افريقية البيزنطي في مراكش ؛ ومن القيروان أثار سلسلة من الاستكشافات شرقا وغربا مع هجمات الجيوش البيزنطية من ناحية وغارات قبائل البربر من ناحية الأراضي الجبلية التي لم تفتح بعد . وحيد بجيشه تونس على هذه الصورة عقبة مواصلا زحفه عام ٦٨٢ إلى مراكش ، حيث استولى على طنجة واحتل الساحل الأطلسي حتى أغادير جنوبا ، ولكنه وجد نفسه ، كما حدث لفاتحي العرب السابقين في طرابلس وتونس ، بعيدا عن قاعدته بمسافة ألف ميل ؛ وعلى الرغم من أنه فاز بمقاومة قليلة في زحفه إلا أن خط مواصلاته الطويل والمجهد من العصابة [illegible] من باب الحكمة أن ينسحب إلى القيروان . ولما كان يرجع

أن يجابه مقاومة قبيلة في هوارة كانت سيادتها في زعيمها الهيصر ، فقد قسم قواته الى عدة فرق صغيرة بهدف خطة ولهذا اتجه ما يمكن من المناطق المتاخمة الى الغرب من تونس ، ولكنه في هذا ارتكب غلطة خطيرة ؛ فمنذ سكرة في شرق الجزائر وقع هو وجنوده وأتباعه في كمين من قوة كبيرة من البربر وذبحوا عن بكرة أبيهم ، وظل شمال افريقية من ملتقى الخمسين والعشرين سنة التالية من طنجة الى طرابلس لا يعرف سوى حكم حكومة البربر الماضي ، باستثناء حروب متقطعة للبيزنطيين لتحول قرطاجنة .

وبينما كانت معركة التوسع على أشدها في كل هذه الجبهات ، كان معاوية في دمشق يضع خطط دقيقة حسنت الاستقرار للإمبراطورية مع رعاياه ، فلكي يتفادى تكرار الحرب الأهلية التي عقبت مقتل عثمان وكادت أن تؤدي الى تمزيق الامبراطورية الوليدة ، عقد عزمه على أن يبايع بعهد المسلمين سابقة وأن يسمى قطعا للحكم يتناصب اليه الخلفاء بالوراثة وذلك بتعيين ابنه يزيد خلفا له . وقد رضي أهل الشام هذا الاقتراح ، كما كانوا يقبلون آراءه في كل شيء بحرص شديد ، ولم يعترض العراق بوجود قوة مسيطرة عليها ولكن عرض تعصبه على الثلاث بمكة : من الحسين بن علي والأحسن ، لكي يبين أن النزاع بين الأمويين والهاشميين لم ينته بموت أبيه وبتنازل أخيه عن الخلافة . قد اعترض بشدة على منصب تعبدا في ديمقراطي نظام الروحي والزمني . ولما كان يوسع الحسين بالظلم كصيف لشيء أن يعتمد على تأييد شعبي ضخم في الحجاز ، فقد قرر مساومة أن يتجاهل معارضة هذا المعترض الذي يتحلى بالتوقير ،

لا أن يعمد الى الإكراه ، وهكذا نراه يريد ويرفضـــها الخليفة .

ويكون هذا الاسلوب من جانب معاوية سر في مكة والدته عن انه ضعف ، على أن هذا لن يساوي قيام حرب اهلية اخرى ؛ ولا سيما انه قد جاوز الآن السبعين من عمره ؛ وكان يؤثر هذه الانتصار اي المرة الرابعة له انه بإمكانه أن يتحقق بأساليب أخرى .

والحسين أدرك وهو على فراش الموت في عام ٦٨٠ أن اسلوبه في معاملة خصومه الهاشميين لم يؤت ثمرته ، وخطر ويزيد يرى من ان الحسين قد يحاول الاستيلاء على الملك ؛ ولكنه نصحه أن يتعامل معه برفق اذا جرى في موقفه من الخلافة . كما حذر يزيد من عبد الله بن الزبير ، وهو عدو لدود للأمويين ، وعلى عدم يزيد ومعه الزبير ومحمد بن ابي بكر ، الثورة بعد معاوية . والواقع انه لم يكد يصل هذا الخبر حتى غادر عبد الله بن الزبير صحبة في مكة ، ونزل حسين المدينة ، الى الكوفة مع حرس من الذين اتبعه لاتســاع ثورة العراق والاستيلاء على الخلافة من يزيد . ولكن جاءوا واتى الكوفة عبيد الله بن زياد حاكما دون وصول الحسين الى الكوفة ، فانسحب الى كربلاء التي تبعد خمسين ميلا الى الشمال ، لكي يقضي خطوته التالية . وقد أوفد ابن عبيد الله رسولا يدعوه الى الاستسلام ، فلما انتهى الى كشف الوقف امر بجمع القتال تحت لوائه . ويبدو أن عبيد الله طلق نطاق الى نواحيه امر محاصرة معسكره . وقد تعددت الروايات وتفاوتت في وصف حقيقة المعركة التي تلت بعد ذلك . ولكن يبدو انه على الرغم من ان قوة الحسين القليلة كانت تواجه قوة تفوقها

مدداً بنسبة عشرين إلى واحد ، فإن الفرقة الحسينية صمدت
جنود الكوفة مدى ساعات ثمان ، وصمدوا أشجع
ثابتة لا مصائب بالعمل الدفاعية وخر ثابتة [illegible]
الحسين صريعاً : واجه أعداءه بمفرده ، فقد حمل على
الكوفيين الذين أحاطوا بالدمشقية حملة شديدة حتى فرّ من
صفوفهم بين يديه الشجعان : ثم سقط بضربة سيف
في العنق . وقد خر دمه ومثّل بجثته ياسر بن عبد الله
ووطئت جثته بحوافر . أما الرأس فقد احتفظ به وقيل
إنه دفن فيما بعد في ضريح بكربلاء التي أصبحت مدينة
مقدسة في العراق .

الفصل السادس :

الإرهاب والتشيع في المشرق

كان على يزيد بعد استشهاد الحسين أن يواجه النتائج المخيفة لاستمراره في العراق . وكان عليه فضلاً عن ذلك أن يحسب حساب عبد الله بن الزبير في مكة . ولكنه لم يجد لكلا الأمرين علاجاً فعالاً ، اذ كان شاباً يؤثر التمتع بالحياة .

وفي عصور ولت لم تر الدم الذي أهاجه استشهاد الحسين يجري الى حد قريب من ارومة القتلة ؛ وفي الحجاز ازدهرت مقاومة عبد الله بحملاته التشهيرية على الأمويين . ولكن يزيد ظل على تردده مدى حولين ؛ ولم يحزم أمره الا عندما انضمت المدينة الى مكة في التمرد ، وخلع عبد الله الوالي ، واعتقل الهاشمي الأمويين . فنفذت ست من الشام بحملة تأديبية كل جندها تقريباً من العرب المسيحيين ؛ فاستولت على المدينة ، وزحفت الى مكة حيث حاصرت المسجد الحرام وضربته بالمجانيق ؛ وفي هذا الحصار انتقلت النار الى الكعبة وأصيب الحجر الأسود بصدوع . ولكن المهاجمين ما لبثوا بعد شهرين حين علموا بوفاة الخليفة ان انسحبوا عائدين ادراجهم ، في نوفمبر من عام ٦٨٣ .

لقد أصبح عبد الله بن الزبير الآن غالباً على مسارح

في الحجاز . وقد انتهز فرصة موت معاوية الثاني بن يزيد فنال اعتراف العراق به خليفة ، حيث ارسل اخاه مصعب ممثلا له ، وكذلك اعترفت مصر وقسم من بلاد العرب ، وجزء من الشام ذاتها . وهكذا بات الامويون مرتعدين أمام زحف الهاشميين المتصل .

ولكن المؤسس الحق لمجد بني أمية كان خليفة آخر من الأسرة الأموية هو عبد الملك بن مروان ، الذي نشط على الفور لتوطيد دعائم الأسرة ، واختار لتأكيد سلطانه على أهل العراق المتمردين أعنفهم رجلا قلبا لا يرحم هو الحجاج بن يوسف الثقفي كان معلما سابقا في الطائف ومن قبله قضى في وادي الفرات . وعندما بعث به لاستئناف حصار مكة استخدم الحجاج المجانيق بالشد في الكعبة ... وقد سقطت مكة بعد ستة أشهر ، وقتل عبد الله بن الزبير وهو يقاتل حتى النهاية بشجاعة الأسود .

وبوفاة ابن الزبير هذا الهاشميون يفكرون فيما بينهم . ثم بنى عبد الملك المسجد الأقصى في بيت المقدس ، ورغبة منه في تحويل الحج عن معقل الهاشميين في مكة ، فقد بنى مسجدا فخما في بيت المقدس سماه قبة الصخرة ، وقرب نهاية حكمه هذا أرسل حملة الى مدينة الكوفة المتمردة ، تمكنت بعد جهد بالقضاء من حركة ثوار الشيعي في عام ٦٩١ .

ولما انتهت الحرب الأهلية الثانية ، وانتصر البيت الأموي ، ولم تعد شبه الجزيرة العربية مركز السلطان والحكم في العالم العربي ، اتيح لعبد الملك في تعزيز سلطة دمشق ، وأجرى عددا من التغييرات الأساسية في جهاز الحكومة المركزية لم يجرؤ معاوية ؛ فمنها انه وضع

مقاليد الأمور في أيدي العرب والتعامل مع تابعي الروم
والفرس في تصريف شئون الخلافة . وكان في مقدمة
إصلاحاته مرسوم بإحلال اللغة العربية محل اللغتين
اليونانية والفارسية باعتبارها اللغة الرسمية في الشام
والعراق ، وكانت النتيجة من هذا أن الموظفين العرب
بالتدريج لنطاق كبير من الأعمال في الإدارة الحكومية بعد ما
كان يشغله الروم والفرس ، وخاصة في شئون المالية
والضرائب والإدارة . وكان الخليفة المذكور أول من
سك عملة عربية محل العملات الرومانية والفارسية التي
كانت حتى ذلك الحين وسيلة التبادل ، وقد بدأ بالدرهم
الفضي والدينار الذهبي .

وفي الإمبراطورية الشرقية عقد عبد الملك العزم على
سحق الاضطرابات المستمرة هناك . ولهذا الغرض اتجه
إلى الحجاج ، الذي رأى أن سلاحه في قمع الفوضى في
الحجاز ضد أعدائه الذين اصطنعوا رأيا في بلاد العرب
وذلك لكي يحكم الشرق بالقبضة الحديدية . ووصل
وصرف الحجاج إلى الكوفة الظهر فرأى ما يشعر
ثم ، فتوجه إلى المسجد متلثماً وصعد واعتلى المنبر
ونزع عمامته عن رأسه وألقى خطبة مشهورة قال
فيها : " إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها " .

ولم تنته بذلك أحداث العراق ، وخاصة بعد أن
أعقبه مقتل ... في البصرة بأسره . ومنذ ذلك الحين
تقرر للإمبراطورية الشرقية أن تكابد حكماً إرهابياً لا نظير
له . فقد كان الناس يعدمون أو يسجنون لأدنى شبهة
في التعاطف مع العلويين أو مناهضة نظام الحكم
الأموي . وقيل إنه في عشرين ولاية الحجاج لمصر العراق
وفارس التي دامت اثنين وعشرين عاماً ، أعدم ما لا يقل

من مائة وعشرين الف شخص ، ووجد في السجن عند وفاته ثمانون الفا .

ولكن برغم ذلك فان مأساة أهل العراق ، احتلالا اجنبيا ، قد ضاعف من حنقهم على سادتهم اهل الشام ، وحنينهم الى قيام احياء علوي . وفي عام ٧٠١ وجد العلويون قائدا في شخص عبد الرحمن بن الأشعث الذي كان قائدا سابقا في جيش علي وكان رابضا في خراسان منذ انتزاع معاوية السلطة . وقد زحف ابن الاشعث على رأس قوة كبرى سميت : جيش الطاووس ، لفخامة زيها متجها الى العراق وعبر نهر الدجلة . وسرعان ما فتحت البصرة ابوابها له معلنة بالعزل الذي جاء لاستخلاصها من عسف الحجاج ولكن انتصار العلويين كان قصير الأمد . فقد استرد الحجاج البصرة بعد مسيرات قطعت من الشام ، ولجأ الى احد عشر الفا من سكانها دعوا حيالهم لمتة لسماحة المنتصرين . ولقد تم (جيش الطاووس) مهزومة من جديد خارج البصرة ، ولكن الشاميين كانوا اقوى منهم . ومن الفوضى التي سادت اثر ذلك هرب ابن الاشعث مصيرة هربا الى خراسان ؛ وطورد ابتاعه وقتلوا قتيلا على يد قتيبة بن مسلم ، والي الحجاج .

كان قتيبة محاربا قبلما بمايل الحجاج في ضراوته ، حتى تشمل الوديان الصحراء واساطير النظرة والفعال الصلبة التي تواترت الروايات عن وجودها نبعا ودان نحو جيحون . ولقد وجد في شخص قائد اسم مثل قتيبة الاداة التي تحقق غايته . وهكذا الحق الحجاج قتيبة عام ٧٠٥ ، بعد اعادة الهدوء الى العراق وفارس ، في الجناح الشرقي على رأس جيش يربو على خمسين الف مقاتل . وفي الــوقت اسهر الى قبل ذلك ، لم تكن

لمضي سنة دون أن تمتد حدود الامبراطورية العربية الى ما وراء تلوس الجنوبية للاتحاد السوفييتي . بل ان جهود خالد بن الوليد وعمرو بن العاص تبدو شاحبة أمام فتوحات قتيبة الذي أطلق جنوده المدربون يصالون بقلانسهم من الوشيق والخناشي — وهي من تواريخ العصور الوسطى — في مدائن تركستان وارسكستان . وقد استولوا على بخاري وسمرقند ، واكتسحوا الاقاليم الشرقية حتى استولوا على فرغانة وخوارزم ، ثم وصلوا في النهاية الى حدود الصين عند كشغر .

وعلى الجناح العربي لفتنة لم يكن محمد بن قاسم صهر الحجاج أقل نجاحا عندما اكتسح ما يعرف الآن بباكستان عام ٧١١ ، وأعتق أطلمها الاسلام . ومع ان مطامع الحجاج كانت ترمي الى الصين ، الا ان احدا من قائديه ، قتيبة او ابن مسلم ، لم يستطع ان يتقدم اكثر من ذلك ، وهرب الحدود الشرقية للامبراطورية العربية عند كشغر والسند .

ولكن اذا كان الحجاج قد أسهم الى هذا الحد الكبير في توسيع رقعة الامبراطورية العربية شرقا ، لقد كان من المحتم أن ينتهي حكم الارهاب الذي فرضه ثماره الكريهة ، بيد انه توفي عام ٧١٤ بسرطان المعدة ، وترك لخيرة من الحكام الأمويين أن يكابدوا المحنة والانتقام اللذين ولدتهما سياسته ، وخاصة من جانب الشيعة في العراق وفارس ومن الموالي الذين كانوا يحسون انفسهم مهضومي الحقوق .

الفصل السابع :

ـــد الأمـــوي
مـظـم استقـــــلاله

في الوقت الذي كان فيه قتيبة ومحمد بن قاسم يكتسحان بجيوشهما أقطار آسيا الوسطى ، كان هناك جيش عربي آخر يسعى لمد حدود الإسلام في الغرب . فمنذ أن ولي الوليد الأول الخلافة عام ٧٠٥ م عين عمه والي مصر موسى بن نصير والياً على الأقاليم الغربية . وكان شمال افريقية من مراكش حتى المغرب قد أفلتت بعد وفاة عقبة في الحرب عام ٦٨٣ إلى حكم البربر : واضطر العرب إلى الجلاء عن عاصمتهم العربية الجديدة في القيروان . وكان البربر يغيرون على المسلمين كما يحلو لهم من معاقلهم الجبلية ، حيث كان العرب يعجزون عن تعقبهم . ومع نهاية القرن السابع تلي الرقف ببرقة واستطاع العرب إعادة السيطرة إلى الساحل حتى تونس وأن يستردوا القيروان ، بيد أنهم لم يتمكنوا إلا بعد قدوم موسى بن نصير من افتتاح طريقهم إلى الغرب .

لقد عزم موسى القضاء على تهديد البربر بصفة نهائية ، وتهيأ له بعد سلسلة من الهجمات الخاطفة غرباً أن يقضي على كل مقاومة وأن يوطد سلطان العرب حتى طنجة . والواقع أن أسلوبه في تخيير أمرائهم بين الانخراط في جيشه بعد

ـــته حين الإسلامي ربي بينهم في سرك العقيدة ثاني أسرها جميعا . وكان من بين هؤلاء الأسرى البربر طارق بن زياد الذي عينه عاملا على طنجة عندما عاد هو إلى عاصمته في القيروان .

ولم يكن يدور بخلد أحد أن طارقا مولى يحتوي همه غير دعم الحكم العربي في الأقاليم التي فتحت حديثا ، ولكنه أقدم في عام ٧١١ على خطوة جسيمة حين عبر المضيق المحدود الذي يفصل إفريقية عن أوربا على رأس قوة مسلحة قوامها سبعة آلاف من العرب والبربر وإقامة برأس حصن عند قاعدة الصخرة الكبرى التي أطلق عليها اسم (جبل طارق) .

وواصل طارق زحفه واستولى على ما يعرف باسم الجزيرة . ولكن منذ هذا الحين صدر أمر من موسى الذي ترك معقله في تونس بالمحافظة على متابعة الزحف في شبه جزيرة أيبيريا . وكانت أسبانيا في ذلك العهد تحكمها ملك من القوط الغربيين هو لذريق الذي لقي مصرعه في المعركة التي دارت مع العرب واستسلم جنوده . ولم يلبث طارق برغم أمر رئيسه أن انقض على الأندلس واستولى على مالقة وقرطبة وغرناطة .

في ذلك الحين (نوفمبر عام ٧١٢) وصل موسى أيضا إلى أسبانيا مع جيش من عشرة آلاف رجل . وبعد أن استولى على مدينة إشبيلية في عنوة قسرية وكان الزحف العربي السابق قد تجاوزها ، لحق موسى بأتباعه فضرب طليطلة حيث عاتب طارقا ووضعه في الأغلال لعصيان أمره في أن يسلك سبيله فيما بعد .

وباستئناف الزحف العربي سقطت سرقسطة وسرقوسة وبلنسيا وطرطوشة وبرشلونة وبمبلونا ، وحاول

خريف عام ٧١٢ كانت أسبانيا كلها في أيدي العرب باستثناء جاليقية واستوريا . وعندئذ استدعى موسى بن نصير إلى دمشق تنفيذ أسباب مغادرة مصره في القيروان دون أمن ، فترك ابنه عبد العزيز بالإشراف على أسبانيا . وعاد أدراجه إلى الشام لمواجهة الخليفة الذي كان قد أدركه المرض . ولكنه لم يحتفظ بهيئة القادم ، بل عاد في موكب الظفر يتبعه على امتـــداد ساحل افريقية الشمالي وفد من أربعمائة أمير من أمراء ونبلاء القوط الغربيين بتيجانهم وأحزمتهم الذهبية . وفي الركب الآلاف من العذارى الإسبانيات ومواكب لا نهائية من العبيد والأسرى منقلين بعتاد الحرب .

ووصل موسى إلى عاصمة الإمبراطورية في شتاء من عام ٧١٥ قبل أسابيع معدودة من وفاة الخليفة متجاهلاً أمر ولي العهد سليمان الذي كان يطمع في تأخير وصول الموكب الظافر إلى ما بعد اعتلائه هو العرش بعد وفاة أبيه حتى يستأثر لنفسه بالمجد لدى ارتقائه . وكان الاستقبال الرسمي في صحن المسجد الأموي بالغاً حد الفخامة والأبهة .

أما بالنسبة لموسى بن نصير فإن هذا الاستقبال الظافر كان بدء النهاية . لقد عبر له الوليد عن امتنانه ، ولكن عندما ارتقى الخلافة بعد قليل رحيله سليمان ، جرد موسى من جميع قياداته وصودرت ممتلكاته ؛ إذ لم يغفر له سليمان حرمانه من الاستئثار بمجد النصر الذي ارتبط بارتقائه العرش ، وقد استهدف موسى بعد ذلك لأشد الامتهان والإذلال حتى توفي معيراً معدماً في قرية نائية بالحجاز . ولم يكتف سليمان بهذا ، بل أمر بقتل عبد العزيز بالسم وهو الذي لم يكن يحكم أسبانيا فقط بل ابنه موسى في

أضاف أيضا جزيرة ماجوركا وغيرها من جزر البليار إلى الإمبراطورية العربية ، بل إنه استدعى محمدا بن قاسم من الشرق وأمر بإعدامه . ولم يكن قتيبة بن مسلم بأحسن حظا ، فقد اعتقل وأعدم بعد محاولة قصيرة لرفع راية التمرد .

وبغض النظر عن هذه الأعمال الانتقامية الوحشية ضد أبرز وأنجح ثلاثة قواد الوليد ، فقد سار سليمان في حياته سيرة سلبية ، مؤثرا حياة الترف والملذات على الفتوح والبطولة ، تاركا شئون الدولة في أيدي مستشاريه الذين كان منهم محسوبه يزيد بن المهلب . فقد عين يزيد هذا ثانية واليا على خراسان ، حيث ظهر أنه يتفوق على حجاج في العنف . لكنه لم يتفوق عليه إلا في القسوة ، إذ أخفق إخفاقا تاما في توسيع حدود الإمبراطورية . وفي الجبهة البيزنطية فقد سلكت جيوش الخليفة من الزحف ومعبر الأناضول لمحاصرة القسطنطينية برا وبحرا . بيد أن هذه المحاصرة تعثرت بتفشي الطاعون . وربما كان هذا الوباء هو الذي أدى إلى مصرع سليمان ، فقد توفي عام ٧١٧ أثناء مرابطة قواته على الجبهة البيزنطية دون أن يعقب ولدا يرثه ، فخلفه ابن عمه عمر .

كان عمر الثاني على النقيض من سلفه ورعا زاهدا ، ورغبة منه في استعادة الوحدة في الإمبراطورية فقد حظر لعن علي في المساجد عملا بالتقليد الذي ابتدعه معاوية ، ورد إلى نسل علي ضياعا كانت مخصصة للأحسان . وقد أدت هذه السياسة إلى قيام هدنة في العراق وفارس ، فقد نسي العلويون وأنصارهم مؤقتا أحقادهم ضد الأمويين . بل إن الخوارج المتطرفين كفوا عن العنف طيلة السنوات الثلاث التي دامت فيها خلافة عمر الثاني . وقد تعرى

في اسناد الوظائف العامة الى يختار لها اكفأ المسلمين دون
نظر الى عصبية قبلية او انتساب الى الخليفة . وكان من
المحتم أن يكون يزيد بن المهلب من أوائل المتأثرين بهذه
السياسة الجديدة ، فقد حوسب على أعمال النهب التى
كان يتفاخر بها في عهد سليمان ، وانتهى الامر بنفيه الى
جزيرة للمسجونين في البحر الاحمر ، بيد أن يزيد لم
يركن الى هذا المصير ، فبعد وفاة عمر الثاني عام ٧٢٠
فر من سجنه وجمع جيشا من مؤيديه واستولى على
البصرة حيث قتل واليها وسطا على خزائنها . وكانت
نهايته على يد جيش من [illegible] الف مقاتل بعث بهم
الخليفة الجديد (يزيد الثاني من اخوة الوليد) ، هزم
ابن المهلب قرب الكوفة وقتله مع ذوى قرابته جميعا .

على أن هذا التمرد لم يكد يلقى مصرعه حتى انبعثت
الثورات في المناطق الجبلية لبحر قزوين لم تقر لها حتى
فرغانة . ومرة أخرى اتحد العلويون والموالي في قضية
مشتركة ، وحينما توفي يزيد الثاني سنة ٧٢٤ ، لم يلبث بن
على حفيد الحسين الشهيد باولى سلسلة الثورات التي كان
مقدرا أن تبلغ ذروتها في الاطاحة بالأمويين . لكن هشام
الخليفة الجديد وآخر أبناء عبد الملك في ولاية العراق
بالقضاء على زيد بلا رحمة وعين لهذه المهمة قريبا للحجاج
يدعى يوسف بن عمر ، وكان واليا على اليمن .

واتخذ يوسف من تفويض الخليفة سلاحا يضرب به
في غير رفق ولا رحمة زيدا وأتباعه . ولكن الشبكة
كانت تطبق على الأمويين ، والفى هشام محاصرا بالأعداء
من كل جهة . ولم يحدث منذ عهد عمر الثاني في عام ٧١٧
بسبب الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية ، فقد
الروم مجالا الى احتلال أطراف الامبراطورية العربية .

التخاذل والانكماش ، وفي عهد هشام أخذوا يتعمقون مائدين عبر الأناضول ويهددون عواصم الإمبراطورية الشمالية . وكان نشاط العلويين والخوارج قد جعل العراق وفارس في حالة غليان مستمر ، وفي آسيا الوسطى ثارت القبائل المحلية واستولت على سمرقند من أيدي العرب وهددت بخارى ، التي لم يكن انقذها إلا شيء أوهى من الشجاعة العرب . ثم امتدت العدوى الى ارمينيا . وفي افريقية ثار ثلاثمائة ألف من البربر ؛ ودارت معركة ضروبة قرب القيروان عام ٧٢٥ مثلما امكن سحق الثورة ، ومع ذلك ظلت مقاومة الخوارج ودولة الخوارج ثورة اخرى للبربر في مراكش .

لقد بدا حكم هشام لونا من حصار طويل متصل ، ولم يتمكن في استمرار ممكن أن يحقق من غير الكلابة المسلمة الا في الجبهة الاسبانية . ففي سنة أرسل بن عبد الله والي اسبانيا عبد الرحمن الغافقي جنوده عبر ممر البرانس واستولى على بوردو حيث اقام معسكرا للحملة ثم اتجه شمالا الى باريس وتوقف الى ايطاليا . لكن حملته لم تصمد طويلا . ففي عام ٧٣٢ التقى بجيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل الملقب بالمطرقة قرب بواتيه ، وعلى الرغم من سبق لهم مطاردة هؤلاء الفرنجة بسهولة من نهر الدوردوني الى نهر اللوار ، فان القائد العربي بالغ في الثقة وظن عنه ان بامكانه ان يشارك في معركة استراتيجية من الارض المكشوفة حيث اصطدمت الخيالة للعرب ، الى سطوح الغابات حيث يقفون اعداؤهم الاصليون . ثم ان المعركة دارت في جو فارس اخيرة لم يكن العرب متأهبين له ؛ وقد انتهت المعركة رغم هجمات العرب المتكررة بانكسارهم بعد مقتل عبد الرحمن .

لقد كانت هذه المعركة نقطة تحول في توغل العرب في اقاليم الفرنجة ، ونشبت بسبب الشقاق والمنافسة بين العرب والبربر في جيش الخليفة . وعلى الرغم من توجيه حملات أخرى في وادي الرون والاستيلاء على افنيون وفالنس وليون ، بل حتى ما بعد باريس ذاتها — فان اوربا قد استيقظت الآن تماما الى هذا الخطر . وبحلول عام ٧٥٩ استطاع شارل مارتل بمساعدة تعزيزات من لومباردي وبرغونية واقليم الباسك ان يجلي العرب الفاتحين الى خارج فرنسا وان يرغمهم خلف جبال البرانس .

ان المد الاموي المتمثل في الفتوح الكبرى قد بدأ الآن ينحسر ، الى ان استهدفت الأسرة الأموية الحاكمة الى السقوط بسبب الانقسام الذي شهرته ثورة العباسيين .

القسم الثاني

عصر التفوق

الفصل الثامن :

المشكلة الشيعية

عندما انتزع مروان الثاني وهو من ابناء اخوة عبد الملك الخلافة من أيدي الخلفاء المرضى الضعاف الذين تهاتوا على التحكم في اواخر عهد الاسرة الاموية ، نشبت الثورات في كل جزء من أجزاء الامبراطورية ، حتى في تلك الشام ذاتها . وعلى الرغم من ان مروان كان بطبعه جنديا مجربا وقد استطاع بعد تبدلات متنوعة أمرها في نطاق امبراطوريته اخماد ثورات الخوارج ، والمتوثبين في غير مثيل كبير ، الا انه اضطر الى ادارة ظهره للامبراطورية الشرقية والانسحاب الى دمشق ، تاركا نصر بن سيار واليا على خراسان مع قوات أبعد ما تكون عن الكفاية والاعتدال .

ولم يكن مروان على معرفة بالالوية الشرقية الكثيرة القلاقل والاضطراب ، ومن ثم لم يكن على علم بالتيار الخطورة في فارس والعراق ، حيث كانت تقلبات اشد خطرا من الثورات المحلية التي سحقها في العامين الاولين من حكمه . فان العرب المتعصبين لم يتعصبوا فقط مع الموالي والطبقات المظلومة في الامبراطورية الشرقية ، بل ان القبائل اخذت تتحد أيضا وتعلن بطونها مع الفرقيين . كما ان الخصومات القديمة بين العرب من أهل الشمال وأهل الجنوب لعبد الموسين ، وحتى الاعداء القبليون

بخراسان قد وجدوا قواهم للمشاركة في الاطاحة بحكم الشاميين . ولكن أخطر من هذا كله أن عربيا قويا جديدا قد أقام نفسه على رأس هذه الثورة البارعة . لقد كان العباسيون – الذين سموا بهذا الاسم لانتسابهم الى العباس عم النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي أتاح النصر في موقعة حنين – يمتون بقرابة وثيقة لنسل علي . ومع أنهم كانوا يخالفون العلويين في نظرتهم الى الخلافة ، الا أنهم كانوا يشاطرونهم حقدهم على الأمويين . وهكذا كانوا خير ملجأ لكل طوائف الشاكين ذوي أي معتقد في خلق القوة القاهرة الشاملة التي ستعمل على الاطاحة بالاسرة الأموية .

كانت حركة العباسيين قد بدأت في عهد خلافة هشام على يد ابراهيم بن محمد أحد حفدة العباس الذي كان وثيق الصلة بالعشيرة الهاشمية . وكان ابراهيم يدير عملياته من مكان ما قرب البحر الميت ، مستخدما كرسول العلويين والمعارضين دعوتهم من المتمردين الاقوياء في الامبراطورية الشرقية ، عبدا فارسيا سابقا يدعى « أبو مسلم » . وكان أبو مسلم خراسانيا ربي في أسر العجليين الأموية وبيع في أسواق مكة الى ابن ابراهيم ، وكان مثابرا بطبعه ويضمر أشد الكراهية لحكم الشاميين ، كما كان يجيد الدعاية رغم ما ينطوي عليه من الخجل والخلاعة ، ولهذا كان أقدر داعية للثورة الصامتة لدى العلويين والمسيحيين والساخطين على السواء . ومما يسر مهمته أن كثيرين من المستوطنين العرب في الشرق كانوا قد تزوجوا من الأسر الفارسية واتخذوا اللغة الفارسية لسانا لهم . ولكن فوق هذا كله كان أبو مسلم ودعاته يرجع الفضل في تناسي التباين لصالحها في سبيل الهدف الأكبر وهو استئصال شأفة الأسرة الأموية الحاكمة .

وبحلول شهر مايو من عام ٧٤٧ استطاع ابو مسلم ان يبلغ الى ابراهيم استعداده لتوجيه الضربة الأولى حالما يعطى مولاه الاشارة . فرد ابراهيم بالايجاب ، وفى الشهر التالى نشر ابو مسلم الاعلام السوداء التي اتخذها شعارا للعباسيين وزحف الى مرو عاصمة خراسان . ومع ان جواسيس مروان تعثروا الى المراسل السرى مما أدى الى اعتقال ابراهيم ووفاته فى السجن ، فان جيش ابى مسلم من القبائل العربية والعناصر الفرس تدفق خلال خراسان وعبر الحـــدود الايرانية ، ورفرفت اعلام العباسيين السوداء من اسوار حصون نهاوند وعلى قصر الوالى الأموي فى الكوفة . حيث بويع فى اكتوبر من عام ٧٤٩ ابو العباس شقيق ابراهيم اول خلفاء العباسيين . وقد تحرك مروان متأخرا . ولكن كل شيء كان ضده الآن ، فقد رحب الموالون بالعباسيين كمحررين لهم ، وتحطم وصول جيش مروان فى مارس من عام ٧٥٠ الى نهر الزاب الشرقي بالموصل وهو احد روافد نهر دجلة قرب الموصل ، ما لبث الجيش الشامي ان تمزق بددا ولاذ بالفرار هربا من المذابح التى استفاضت بها شهرة ابى مسلم . وكان مصير الذين نجوا منهم من التقتيل والذبيح الموت غرقا فى النهر الفائض .

لقد اصبح الطريق الآن مفتوحا الى الشام . وسقطت دمشق بعد حصار قصير . وانطلق العباسيون يطاردون مروان الذى هرب الى مصر ، وهنا وشى به بعض رجاله انقلبوا لحسابهم ، وخصصت بعد ارسل رأس آخر حكام الأمويين الى ابن العباس مع شعار الخلافة .

وقد شرع نظام الحكم الجديد الآن فى استئصال كافة آثار الحكم البائد . فأخذ بتعقب الأسرة البائدة من

الاسرة الأموية وبأبنائهم جميعاً . ولقد هربت جماعة منهم
الى ملطية القابها عبد الله بن علي عم الخليفة الجديد
وقتلوا تقتيلاً اثناء المأدبة . واحد فقط من امراء الأسرة
التي حكمت الشام معظم المائة عام الأخيرة استطاع
الإفلات ، هو عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام ، الذي
فر الى اسبانيا وبعد اقام مجداً للأمويين ناغياً في
ابهته ونضارته بلاط هارون الرشيد المشهور . بل ان
الموتى لم يتركوا في سلام فقد نبشت رفات الخلفاء
الأمويين من قبورها وانتهكت حرمتها . واحرقت عظام
هشام ، ومثلها جثمان هشام بعد جلده ثمانين جلدة .
والواقع ان الخليفة الجديد الذي لقب نفسه في خطبته
الأولى بلقب السفاح وهو عبد الله ، بدا وكأنهما
متناقضان في القسوة والانتقام . ولأول مرة في تاريخ
العرب انتصبت آلات قاتلة للاستعمال في قصر الخليفة
حصيراً من الجلد استخدمت كبساط للسياف ، الذي
اصبح يقف منتصباً على اهبة الاستعداد بجانب عرش
مولاه .

وعلى الرغم من روح العصبية التي حارب بها
جيش ابي مسلم والاستماتة الثورية من جانب الجماعي
العرب والاعرابية للثورة العباسية ، فان مثل هذا
الانجاز ما كان يمكن ان يحدث لولا ان الأمويين قد عجزوا
انفسهم الى حد كبير قبل رفع الرايات السوداء . فان
الفساد كان قد حل منذ عهد سليمان العربي المتلل ،
وعلت الذبة والجشع تتمرغ في كيان الخلافة
ونسيت فرسانها ، وبتدفق الغنائم والكنوز من كافة
الارجاء نقل الأمويون من اساليب الحياة الصحراوية
الخشنة التي كان اجدادهم ابطالها ونسوا التعاليم الروحية
للاسلام ، وانغمسوا انغماساً كلياً في شرب الخمر ،

ر ... وسباق الخيل ، والتغنى بأسلاب الملوكية
والعبيد . بل ان الزنا الذي كانت عقوبته الموت أصبح
العمل الشائع . وملأت الجواري القصور والأجنحة بما جلب
إليهم من الجواري من سبايا الحروب ، من يونانيات
وفارسيات وتركيات وافريقيات واسبانيات . بل قيل
ان هذا هو الوجه الثاني كان ينسحب بانتظام في حركة
من العصر .

بيد أن الترف والانحلال لم يكونا وحدهما السبب في
توهين عزيمة الأمويين واضعاف ارادة المقاومة عندهم
وتسليم الأمور لخصم العباسيين ، فقد كانت سياسة أكثر
خلفائهم هي محاولة الحكم بأسلوب ، فرق تسد ، أو
الايقاع بين العرب من أهل الشمال وأهل الجنوب .
وبالطبع فقد سارع العباسيون يبيون للقتال كيف كان
حرى استخدامهم لاستدامة سيطرة الشاميين عليهم .

والى جانب هذا كان الأمويون لقصار النظر الى حيث
حد في تسيير نظام خاص كان به العرب هم الطبقة
الارستقراطية الحاكمة والموالي في وضع الواقعين في
الدرجة الثانية . وقد أدى هذا الى اثارة الحفيظة والمرارة
في نفوس الموالي من أبناء العراق وفارس وجعلهم أداة
طيعة لأية حركة ثورية ، ولا سيما أنهم كانوا أكثر ثقافة
بحكم اتصالهم الأسبق بالحضارتين البيزنطية
والفارسية .

***

ان الثورات كثيرا ما تكون ذات أسلوب في الانقسام
الداخلي ، كما حدث لأبي مسلم والخوارج والعلويين
المتفوقي الحظ أن يعرفوا عنه قريب ، وكان أول من
استهدف بهذه المحنة هم الخوارج ، الذين أدى بهم
اعتقادهم بأن الخلافة يجب أن تشمل على مجلس منتخب

لا حتى حاكم معين مستبد – أدى بهم الى الثورة على النظام الجديد كما ثاروا من قبل على النظام القديم ، ثم كان من أبي مسلم الذي عين واليا على خراسان الا أن قاد حملة ضدهم ، وقيل انه ذبح خمسين ألفا منهم قبل تهدئة الأوضاع في الولاية . لكن مثل هذه القصص المبهمة من سلوك أبي مسلم بدأت تنتشر وتتجاوب أصداؤها الى حد رأى معه حتى ابو العباس المعجب بالشخص ان يبعث أخاه أبا جعفر للتحقيق والاستقصاء . ولقد أكد التحقيق كثيرا من أعمال القسوة المعزوة الى أبي مسلم ، كما كشف عن وجود أخطاء خطيرة له يجب تصحيحها . ولقد أوصى ابو جعفر الذي أزعجته نتائج التحقيق أخاه أبا العباس بعزل أبي مسلم ، بل بالقضاء عليه اذا لزم . بيد أن الخليفة برغم ميله الى الأخذ بهذه المشورة خاف خوفا شديدا من ردود الفعل في خراسان ، ولم يعمل بها .

وعند هذا الحد انتكس حظ أبي مسلم ، ففي غضون أشهر ثلاثة توفي ابو العباس بمرض الجدري ، ونودي بأبي جعفر خليفة ملقبا بالمنصور ، وقد حاول أبو مسلم جهده استرداد اعتباره لدى مولاه الجديد ، وعندما سعى عبد الله عم أبي جعفر الى منازعته في العرش ، اندفع أبو مسلم من خراسان للدفاع عن الخليفة الشرعي . وكان نصرا أن يتم أبو مسلم ، ولكنه أخفق في أن يحرز الانتصار لنفسه . ففي طريق عودته الى خراسان دعي لزيارة بلاط أبي جعفر ، ومع دعوة اطلاعها بلهجة ، الا أنها تنطوي على مكائده عما خفي ، ولكنه كان مخدوعا الى حد بعيد ، فانه ما كاد يصل حتى بلاط أبي جعفر باتهامه بجرائمه وخطاياه ، وهي اتهامات عقوبتها الموت . وبادي اشارة معينة من الخليفة

اقتحم الحرس على أبي مسلم ومزقوه إربا وألقوا بجثته المختلطة في نهر الدجلة .

وكان الدور التالي على المتطرفين الذين أقنعهم أبو مسلم بدعايته المفرطة بأن العباسيين إنما يخوضون معركتهم هم أنفسهم . وبعد انقضاء عشر سنوات دون ما اعتراف من النظام الجديد بمطالب العلويين ، قامت ثورة في العراق والحجاز أشعلها على ما هدة العلويون الذين اغتصبوا من جانب العباسيين . وقد رد أبو جعفر بلا رحمة ، فأخمد الثورة ، وأعدم زعماء العلويين .

ولم يكن القضاء على الأمويين والخوارج أو ما تلا ذلك من التخلص من أبي مسلم والعلويين ، فقد صار لأبي جعفر ابن منصور أن يقضي بقية حكمه الذي دام واحدا وعشرين سنة دون خوف من منافس . ولكن يبدو أنه ما برح غير واثق من العرب أثناء جلادته ومن حاشيته بالإخلاص لنظام حكمه . فإنه بعد ذلك عين حرسا هو ومن وليه من الخلفاء على الاستعانة بغير العرب بالفرس في أرجاء المملكة . وقد نقل مقر الخلافة من الشام إلى العراق ، وأخذ التقاليد الفارسية ونظم الحكم والعادات الاجتماعية ، وكف عن اختيار حرس الخليفة وضباط الجيش من العناصر العربية ، وجعل اختيارهم من خراسان ثم فيما بعد من قبائل الترك في المشرق . وكان لهذه التغييرات الجذرية أثر بعيد في تطلعات معينة من السكان العرب ، الذين أصبحوا يشعرون أنهم غدوا في الواقع ، وإن لم يكن شرعا ، مواطنين من الدرجة الثانية في امبراطوريتهم ذاتها .

بيد أن هذا كان بالنسبة للموالي في فارس والعراق

فجر عصر جديد ومجيــــــــد ، فإن المتفائلين منهم أي العباسيين قد ظفروا بنصر باهر ومكان تحت الشمس للمظلومين من أن النصف الشرقي للإمبراطورية ، وما هو إلا أن انتهى حمام الدم الذي كان في البداية حتى خرج نظام الحكم الجديد في تطبيق ملكه بالأبهة الفارسية .
وكان أول أعماله في هذا الصدد هو اتخاذ عاصمة جديدة له ، ففي عام ٧٦٢ اختار أبو جعفر موضعا على نهر الدجلة اسمه بغداد غير بعيد عن العاصمة الفارسية القديمة طيسفون ، التي اتخذ من أطلالها محجرا لتزويد العاصمة بمواد البناء . ونزعت أبواب دمشق والكوفة وواسط المعقل الحصين للحجاج وأرسلت لتركيبها في المدينة الجديدة وعلى من فوق كل شيء سوى العرش الضخم لقصر الإمبراطور الفارسي الذي تحدى ثلاثة أجيال لنزعه من مكانه .

والواقع أن الذوق الفارسي قد شمل بالتدريج كل أشكال الحياة العربية ، فأصبحت الألقــاب فارسية ، والزوجات فارسيـــات ، والأغاني فارسيـــة ، والأفكار والمعتقدات فارسية .

وقد نقلت هذه المظاهر الفارسية على أحدها فيما قام به العباسيون من تغييرات دستورية . فقد أدخلوا المنصب الفارسي للوزير ذي السلطات الكبيرة ، وبهذا التعديل للسلطة الزمنية الذي طرأ على نظام الخلافة ، أصبح الخليفة العربي أقرب إلى أن يكون الرئيس الروحي للدين الإســـلامي ، بينما تدار شئون الدولة بيد رئيس الحكومة .

وكان أول من شغل منصب الوزير هو خالد بن برمك ، الذي كان أبوه كبيرا لكهنة البوذيين في بلخ في خراسان

... فيه ، وقد ورثه أبو جعفر من أخيه أبي العباس الذي توطدت بينهما العلاقات الشخصية الى حد أن ... بين ... ارضاع أطفالها . وهكذا كان العمل مع أبي أيوب من مكانه اصبح البرمكي المسلم صديقا حميما لأبي جعفر ومستشارا خاصا ، والراجح أن نفوذ خالد بن برمك هو الذي حفز على دراسة وتنمية الفنون والعلوم اليونانية والفارسية التي جعلت من العاصمة الجديدة واحدة من أكبر المراكز الثقافية في العصور الوسطى .

ولم يكن أبو جعفر بطبيعته منغمسا ولا منحازا الى اللهو ، ولكنه كان أقرب الى الزهد والتقشف ، وكانت له مواهب رجل الدولة والسياسي الشعر ، وقد هيأت له هذه الصفات أن يسع الخلافة أكثر من ثلاثين عاما من السلم ، واستطاع بمقدرته أن يكبح كل تهديد لسلامة الدولة ، بل أن يوسع حدود الامبراطورية في الشرق باخضاعه طبرستان الواقعة على ساحل بحر قزوين وكذلك قضاء على الحدود الهندية الى رقعة الدولة . وقد تهيأ لخلفاء العباسيين بفضل حنكته وسياسته أن يظلوا بالخلافة منذ عهده الى عهد ارتقاء حفيده هارون الرشيد ذي المجد والأبهة لم ينل منهم سرطان الحروب الأهلية . أن اسم هارون قد يتصدر الآن فصل في تاريخ العباسيين ، بيد أن أبا جعفر هو مؤلف المقدمة .

وكان الشغل الشاغل لجعفر الى جانب شئون الدولة هو تأسيس أسرة حاكمة من نسله ، على غرار ما فعل معاوية من قبل . وفي هذا السبيل لم يتورع عن استخدام تلك الأسلحة لضمان الخلافة لولده محمد . فان أبا العباس كان قد أوصى بالخلافة بعد وفاة أبي جعفر لابن أخ له هو عيسى بن موسى . وقد حاول أبو جعفر أول

الأمر التحصن من حبس بالسم ، وعندئذ فتبل جاء
بشهود أقسموا أنه لم يكن ثمة عهد من أبي العباس وإن
أخذه ، ولكن عيسى استنجد بشهود أكثر أشهدهم إلى
جانبه ، غير الخلاصة باحضار ابن عيسى أمامه ، وطلب
مرتين من الكاتب فيه الأمر ، وأرغمه على الركوع تحت
سلطة الإعدام ، وعندئذ تقدم أبو جعفر من المطلع إلى
العرش والسياف قائم فوق رأس الضحية أن يختم هذه
الفرصة الأميرة فسحب مطالبه وسعد ولده . وقد كان
لهذا التهديد الوحشي أثره المنشود ، وانسحب عيسى
وولده إلى خيمة لرب الكرخة مع منحة مالية جزيلة .
وعندما توفي أبو جعفر عام ٧٧٥ وهو في طريقه إلى مكة
للحج ، خلفه محمد المهدي ... [illegible] أبو جعفر
مطمعه الأكبر ، وأصبحت الأسرة العباسية التي تعاقبت فيها
[illegible] الملحمة [illegible]
[illegible]
[illegible]

الفصل التاسع :

بعث الأمويين في اسبانيا

بينما كان أبو جعفر يعمل على دعم الخلافة العباسية في الشرق بمثل هذا التدقيق ، كان يجري في اسبانيا تحول بالغ تحت قيادة عبد الرحمن أول امير لقرطبة. ففي السنوات الاخيرة لحكم الأمويين كانت الجيوش الاسلامية في الغرب قد منيت بانتكاسات خطيرة جعلت سيطرتهم في اسبانيا تقتصر على الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة . وكانت الخلافات الداخلية تمزقهم كل ممزق ، وامتدت الاحقاد القديمة بين عرب الشمال وعرب الجنوب الى اسبانيا ! وكانت قبائل البربر دائمة الانتقاض والتمرد على حكم العرب بسبب هضم حقوقهم ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية . ولم ينقذ المستوطنين العرب من الفناء سوى مجيء جيش من سبعة وعشرين الف مقاتل أرسل من الشام لسحق ثورة البربر . وقد استوطن القادمون بدورهم البلاد فيما بين اشبيلية وجاين والجوار واقروا . ولكن نار الثورة تعالت من جديد بعد أن رفعت رايات العباسيين السوداء على انقاض الخلافة الاموية . وبينما كان يوسف الفهري أحد الحكام من سلالة عقبة بن

ثالج منهمكا في اخمـــاد واحدة من حركات التمرد ، اذ جاءت الأنباء بأن أميرا شابا من الأمويين هو عبد الرحمن بن معاوية قد هبط الى الأرض الاسبانية قرب غرناطة بقصد الاستيلاء على الإمارة .

كان عبد الرحمن في العشرين من عمره عندما قتل العباسيون على أسرته ، ولكنه استطاع الافلات بمعجزة حتى وصل بعد رحلة طويلة شاقة ذاق فيها الأهوال الى سبتة في عام ٧٥٥ والتجأ الى بعض البربر من أقارب أمه .

وقد شرع على الأثر في العمل لكسب أســـبانيا الى صف الأمويين . ومن حسن حظه ان العرب في أسبانيا سئموا خلافاتهم واحتدت رغبتهم في التخلص من يوسف وأبدوا تمام استعدادهم في الانضواء تحت لوائه لتحقيق هذه الغاية . ولما أدرك يوسف مدى قوة هذا المنافس الخطر حاول اكتسابه الى جانبه بالرشى والوعود ، بما في ذلك تزويجه من ابنته ؛ ولكن عبد الرحمن تجاهل هذه العروض وزحف مظفرا مرحبا به الى اشبيلية وأرشيدونة وسدونة . وعندئذ لم يكن أمام يوسف سوى القتال أو الهرب . فقرر أن يقاتل ؛ وزحف من عاصمته قرطبة حتى التقى بجيش عبد الرحمن على ضفاف نهر الوادي الكبير في صباح الرابع عشر من شهر مايو عام ٧٥٦ . وكان النصر حليف عبد الرحمن الذي دخل قرطبة مظفرا بعد فرار يوسف .

وهنـــا أثبت الأمير الشاب أنه رجل دولة وذو نزعة انسانية كما هو جندي بإعلان العفو العام وتحريم السلب

الاندلس ، بعد أن سيطر على قرطبة لم تجعل منه حاكما
على مشاريع اهل اسبانيا الاسلامية . لقد ناصبه العداء يوسف
بن عبد الرحمن الفهري ، حاصر طليطلة مدى ثلاثة أعوام ، الى أن تمكن
في النهاية رغم الاستيلاء على طليطلة عام ٧٦٤ . ومن
ناحية أخرى فإن البربر الذين دعموا أول الأمر موقفه
سرعان ما لبثوا أن عادوا لخروجهم من عدم توزيع الأراضي
عليهم بالتساوي ، وأخلدوا يقاومون الحكم العربي
عشر سنوات أخرى . ثم كانت بعد محاولة الخليفة
العباسي ابي جعفر للاستيلاء على اسبانيا لصالح
العباسيين ، والتي انتهت عام ٧٦٣ بقطع رأس مبعوثه
وقائده والوالي ، وإرساله محفوظا في الملح والكافور
مع مجموعة بالتربية المحفوظة . وفي عقب هذا كله ، في
عام ٧٧٧ ، سعى شارلمان امبراطور الفرنجة الى التحالف
مع سميه يوسف وبعض زعماء القبائل العرب المنشقين في
منطقة برشلونة ، لمواجهة عبد الرحمن في قرطبة .
عبر شارلمان ثم ... أبعد من سرقوسة
التي أغلقت أبوابها في وجهه وبدأت مقاومة ، والمهم نصبه
هدف الهجوم من كل جانب . فقد زحف عليه عبد الرحمن
من الجنوب ، وتعرض خلفاؤه لمضايقات شديدة قام بها
جيش من جنود الباسك الذين كانت أسرهم من حكم
الفرنجة والقوط . وهكذا انسحبت قوات الفرنجة شمالا
عبر جبال البرانس معركة الآف القتلى في مضايقها
وتهويها ... نهب زعيمهم الشهير رولاند الذي
خلد الأدب الفرنسي موته البطولي في « أنشودة رولان » .

وبهذا الانتصار أصبح الأمير الأموي أخيرا قادرا على
توجيه نشاطه من أجل أن اصلاح الحكم في اسبانيا

الإسلامية ، والى توحيد طوائف العرب والبربر المتطاحنين دون خوف من الهجوم عليه سواء من داخل الامارة أو خارجها ، فقد تحدى أقوى الحكام في الشرق والغرب وأثبت انه ندا لهم ، وعمل على توطيد السلم والنظام والاستقلال في أسبانيا . وتهيأ له بما أغدق على البربر في شمال افريقيه وأسبانيا أن يجعل من هؤلاء الذين جبلوا على التمرد والثورة المتواصل جيشا منظما جيد التدريب قوامه أربعون ألف مقاتل .

بيد انه برغم هذه الانجازات كلها لم يتخذ قط الى الخشن لقب الخليفة ، بدلا من ذلك كان معروفا في كافة أرجاء ملكه باسم امير أسبانيا . وسيظل خلفاؤه على مدى ثلاثة قرون وحتى بعد وفاته يحملون هذا اللقب . ومهما يكن فان حكم عبد الرحمن في سلطان لا يعود الى قوته . وانما الى التراث الجمالي والإبداعي الذي خلفه في أسبانيا . فان هذا التراث لم يضارع لعظمة الابهة الفارسية التي اتسمت بها الخلافة العباسية ، ولكنه ظل ابدا أثرا باقيا شاهدا على الفن والعمارة العربية على مدى مئات الاعوام بعد ما تعرضت أمجاد بغداد وعلت عليها موجات النسيان ؛ وصير العديد من العرب فلسفة بدأت أوربا تعد نفسها وارثا خاصا بها .

لقد شرع عبد الرحمن بعد استتباب السلم والأمن من العرب في أسبانيا في تنمية مواردها بنشاط وعزم . فحيث الدولاب الآلية لتزويد مدن الامارة بالمياه النقية ، وتحسنت مصنوعات الزي ، وادخلت نباتات وفواكه كالخوخ والرمان . وفي عام ٧٨٦ ، أي قبل وفاته بعامين ،

شيد مسجد قرطبة الكبير ، منذ القرن السادس عشر
لقد ضم هذا المسجد بين جنباته كاتدرائية رومانية
كاثوليكية ، ولكن على الرغم من هذا ومن ازالة كل ما
تذوقه عشاق الفن الاسلامي في اسبانيا مدى غرابة
ارجائه عام ، فما يزال هذا المسجد الكبير يشار اليه
في الاعلانات المدينة وفي الدليل الرسمي باسمه « المسجد » .

بل ان عبد الرحمن عهد الى اكثر من تجميل المدن
وبناء المساجد . كان سياسيا محنكا موهوبا وروحا ديمقراطية
ومن ثم فقد ادى مع سحب الامارة ثانيا العدالة .
فقبل الفتح الاسلامي كان اسلافه القوط ورجال الدين
يتمتعون بحق السلطة وكرامة الامتيازات . وكان الفلاحون
يعيشون عبيدا لامراء حكامهم فالغى عبد الرحمن هذا
الظلم ومنح الفلاحين الاحرار قانونا للحقوق والحماية
القانونية لم يعرفوا قط مثله من قبل . فلا عجب اذا كان
بعض المؤرخين الغربيين مثل رينهارت دوزي قد اقر بان
« الفتح العربي لاسبانيا كان نعمة لها » .

ومن سوء حظ اسبانيا والعرب ان عبد الرحمن لم
يفسح له في الاجل بعد الثامنة والخمسين لكي يواصل
أعماله الاصلاحية . وكان اولئك الذين اعقبوه في الحكم
خلال السنوات المئة التالية فريقا هزيلا بالمقارنة اليه ،
انصرافا عن شئون الحكم والاصلاح الى اللهو والملذات ،
وبينما اثمرت جهود عبد الرحمن ثمارها واخذ اقتصاد
اسبانيا يزدهر ويزداد ، اخذ خلفاؤه التجارة الى اجتناء
الثراء والحصون ؛ واخذت الانماط والعادات الفارسية
من بلاط هارون الرشيد ، واستبد بالحكام ذلك الافتتان

المسلطو بالترف الذي ساعد على تقويض الأسرة الحاكمة الأم في الشام . وما لبث البربر أن عادوا الى سالف عهدهم من الانتفاض معارضين الاستيلاء على الامارة . وبانتشار روح التمرد والثورة بدأت الولايات تنسلخ عن حكم قرطبة وتعلن استقلالها .

لقد تسنم العرب في عهد عبد الرحمن ذرى القسوة والشهرة . وفي عهد أبنائه أخذوا الآن ينحدرون سراعا الى الهاوية .

الفصل العاشر :

ألـف ليـلة وليـلة

في غضون اثني عشر سنوات بعد وفاة أبي جعفر ، تطورت الخلافة العبـــاسية من ربيع مزهر الى صيف مثالي . لقد أصبح هارون الرشيد ، حفيد أبي جعفر ، هو الخليفـــة . وبدأ عصر ألف ليلة وليلة . وإذا كانت أحلى أمرة من العدل الظاهر وكانت حرارة الصيف تبهر في شعاعيها ما عاصر قدامه ، فإن أحداً لم يعطن اليها أو لم يحفل بها أو عروس الامبراطورية الرومانية قبله تسبب أو لم يعطه منها أحد . وانتعشت يقظة في الأبهة والترف ، هي سالية بالمرة .

لقد جمعت الثروات وكان المال يتدفق على نطاق يفوق ما ينفقه آل روتشيلد وروكفلر في العصر الحديث ، ووضع هارون أخاه ابراهيم وكان يحب محترفاً أكثر من مليوني دولار (بالعملة الحاضرة) سخاءً وكرماً . وكدست أسرة البرامكة ـ الوزراء بالوراثة لدى أبي جعفر وهارون ـ ثروة حسبنا قيل إنها جاوزت ثلاثين مليون دولار . وذكر أن أم هارون مالك أكثر من أحد عشر مليون دولار كانت تنفقها على زينتها وقصورها . واكتسبت زبيدة العصماء زوجة الخليفة شهرة أسطورية في الإنفاق مثل الخليفة ذاته . وفي قصور الخلافة التي كانت تحتل ثلث المدينة

ذات قصر على ألا يشرب ضيوفها إلا في كئوس من ذهب ، أو فضة مرصعة بالجواهر . وحتى أحذيتها [illegible] بالأحجار الكريمة ! وقد ذاع أنها في رحلة صيد إلى مكة أنفقت ما يزيد على مليوني ونصف مليون دولار .

وكما كان الحال في أواخر عهد الخلفاء الأمويين ، كانت نساء الطبقة الراقية يتمتعن بقدر كبير من الانحــلال والفجور ، وينافسن الرجال في الدخول في شئون الدولة ، ويتحفن المجتمع بأحاديثهن الطلية ومراهقين [illegible] . وقد شــاع الشذوذ لكثرة عدد الجــواري و[illegible] . وصار الترف يوحي للأغنياء إلى حد لم يعرف له مثيل في العصور الحديثة حتى في عصور ملوك التروبادور الاقطاعيين . وكانت البيوت تزود بالمياه ، وتزدان [illegible] لا تقل جمالا عن العصيه ، وتغطى الأثاث قطع مرصعة بالأبنوس والذهب . وركب طلاسم في هيئة ثلاث قوارب كبرى على أشكال الأسد والدلفين والنسر ، تكلف كل منها أكثر من مئتي وخمسين ألف دولار ! صنعت لرحلاته النهرية . وكانت القصر تتربع صفا ، بينما كانت الأطباق وقصعات الشعر في طبق أحمر تزيد في حجرتها تعبق بالعنبر المحترق .

بل ربما كانت فارس والعــراق أكثر منهم الثروة بتوزيعهـــا في الأثاث والتشويهات . كانت الأقمشة الحريرية الزدانة بخيوط الذهب [illegible] في ألف دينار من أجل سيدات البلاط . وكان [illegible] : فالبناء الحريري الذي ينسج في فارس [illegible] الأنسار ومقادير كبيرة إلى أوربا . ومن بخارى إلى دمشق كان يصنع كل شكل من الأثاث والأدوات المنزلية ، من الأرائك إلى الأغطية ، ومن الدمقس إلى الأنماط المذهبة . وكانت

صناعة الزجاج في الشام والورق في سمرقند أول ما صدر من هذه الصنائع الى الغرب المسيحي . وكان الزجاج الملون الذي جاء به الصليبيون لأول مرة الى اوربا مقلدا للأنواع المطلية بطلاء المصنوعة في الشام . أما من الثروة المعدنية من ثروات الخلافة فيها كانت تجاوز الحصر . كانت كل جوهرة تتحلى بها سيدات المجتمع العباسيات مما يحمل وجوده في نطاقها — الذهب والفضة من خراسان ، واللؤلؤ من البحرين ، والياقوت واللازورد من بلاد ما وراء النهر ، والفيروز من نيسابور ، والأبنوس من أصفهان . وكانت الشام تنتج الرخام والكبريت ، وفرغانة تورد النشادر والقار والزئبق .

وكان التطريز المستورد من الهند ، والفرو هي الأسلاب المفضلة في الأعياد . وكان اللؤلؤ ، والجواهر من فارس ، والرماح من الهند ، وسلاح الخيل ، والسيوف من الرياضات الرئيسية خارج الدور . وكانت الزراعة في البلدان تجري حاسمة ، وتدر مبالغ كبيرة . أما السمن ، فقد أدخل في شرب المنصور من فارس — وهي مادة ما زالت مستعملة الى اليوم في الأردن والسعودية والخليج العربي .

ومن وراء كل هذا الترف والثراء كانت تجارة واسعة ومسالك مزدهرة . فقد كانت سفن التجارة من كل أنحاء الامبراطورية الشرقية ترسو حتى امتداد أرصفة بغداد واسعة ، من الصين حتى افريقية ، محملة بالحرير والعطور والعنبر والأصباغ والتوابل والجواهر واللازورد وأنواع الأقمشة والعبيد للبيع في أسواق العاصمة ، حيث كانت الحوانيت تجمع بعضها مع بعض حسب نوع التجارة أو الحرفة — فالصاغة في شارع ،

والخبازون من آخر – كما هو الحال اليوم – وكان التجار العرب ؛ ومنهم السندباد البحري الأسطوري ، يحملون إلى الشرق الأقصى وإلى أوربا وإفريقيا حتى روسيا ؛ الأرز والحبوب والكتان والحرير والعطور والزيوت والزجاج والتوابل والسكر والفواكه والخضر ، وهي منتجات مصر والشام والعـــراق والخليج العربي والوديان الخضراء فيما بين دجلة والفرات ، وغالبا ما كان هؤلاء التجار يحملون أيضا رسالة الإسلام ، التي وصلت في جنوب شرق آسيا ؛ وعلى الأخص في الجزر التي تتكون منها اليوم دولة أندونيسيا .

وكان في الإمبراطورية العباسية أيضا مستوى رفيع للخدمة الاجتماعية والصحة العامة ، فقد كانت العاصمة وحدها تضم ما يزيد على ستة وعشرين ألف حمام عمومي . ومع تقدم الطب والصيدلة تقدما سريعا ، وأتيح تنظيم الامتحانات لمن يمارسون الطب والصيدلة لمنع استغلال الدجالين للجمهور ، وسال ابن في العاصمة وحدها اجتياز هذه الامتحانات أكثر من ستمائة طبيب . وقد أدخل نظام تشريح الحيوانات للأبحاث الطبية في وقت مبكر في القرن التاسع ، ونشر لأول مرة كتاب تعليمي عن طب العيون . وقد أنشئ أول مستشفى في العاصمة على يد هارون الرشيد ، ثم أنشئ أكثر من ثلاثين مستشفى في شتى أرجاء الخلافة ، وقد زود كل منها بمستوصف ، وفي بعض الحالات بمكتبة طبية وتسهيلات تعليمية لكلية الطب .

وكان رجال الطب المشرقون بصفة أساسية في هذا التقدم في الطب والكيمياء هم جابر بن حيان وأبو بكر الرازي . وقد أطلق على جابر الذي جاء من الكوفة بالعراق لقب « أبو الكيمياء العربية » . وبسبب زعامته

الحماسية في التجربة . فقد عمل على تقوية الاضطرابات العصبية بتهدئة [illegible] ومن الأعصى بضربات [illegible] في محاولة [illegible] لتحريك العادات العصبية .
[illegible] حديثة تقوم [illegible] في عصابات [illegible] و[illegible] . وقد ترجمت مؤلفاته : التي لا [illegible] [illegible] الأيوم أكثر من خمس مؤلفات إلى اللاتينية [illegible] من [illegible] و[illegible] ذات علم طبع في [illegible] وروما وأسبانيا . وكان أبو علي الرازي وهو [illegible] من [illegible] قرب طهران أشهر [illegible] ! وقد وصفه [illegible] أكثر [illegible] من [illegible] الأطباء المسلمين وأوفر [illegible] كمؤلف . [illegible] مؤلفاته التي حازت الشهرة [illegible] من الكتب في الكتب [illegible] في اللاتينية واحتفظ [illegible] كمصدر للمعرفة الطبية في أوروبا على [illegible] عدة [illegible] وذلك كما [illegible] عن [illegible] في [illegible] وقد [illegible] الأوربيين .
[illegible] التي هي [illegible] موسوعة [illegible] التي [illegible] أخرى من مصادر يونانية وعربية وهندية ومن [illegible] : فأصبحت واحدة من أبرز المصنفات في [illegible] الطب : وتعتبر [illegible] في الطب والبحث العلمي في الغرب مدى قرون طويلة .

وقد بلغت [illegible] بعد طول [illegible] : فتكلمت بالرمي [illegible] [illegible] والصح والأبد [illegible] . [illegible] و[illegible] وخراسان والوديان الخضراء حول [illegible] [illegible] في الخصب والأحلام . [illegible] هذه العالمون العرب [illegible] [illegible] التجربة : [illegible] تنتج

الى دالوة وخطر ما آلت اليه ؟ من البرتقال الى قصب السكر ؛ ومن الزيتون الى البطيخ .

وكان الخليفة هارون الرشيد هو الذي يتربع فوق ذروة هذا الثروة الأكبر بازدهاره في الإمامة . والذي كان يعد في الحرمة والقداسة [illegible] كل [illegible] الحكام [illegible] . بل ان [illegible] كان [illegible] فيه التعرية [illegible] احتدمه الى حد [illegible] والتسبيح الى حد تعالف [illegible] مخدم مصلحتهم [illegible] البيزنطي والأمويين في اسبانيا ؛ [illegible] . ولعله هلا [illegible] لأول مرة [illegible] من [illegible] حكم [illegible] مجهود له [illegible] السلم والانسجام [illegible] في [illegible] البيزنطي في آسيا الصغرى [illegible] هارون [illegible] يصد [illegible] الذي [illegible] [illegible] ركاب [illegible] الملكة ايرين ارهب [illegible] الجزية [illegible] . وكان [illegible] مرة وقف فيها [illegible] امام أسوار [illegible] .

وإذ عاد هارون [illegible] واستقل [illegible] . [illegible] بسبب [illegible] الرشيد [illegible] الى الانحراف و التدني بعد هذا [illegible] هارون [illegible] طلب الى أحب الاكبر [illegible] في [illegible] الخلافة [illegible] ذلك مباشرة [illegible] هارون [illegible] عدم الالتجاء [illegible] ولكن [illegible] وهي [illegible]

كان محمد قد أعتقها وتزوجها لكي يسبغ الشرعية على
ولديه ، كانت أكثر طموحا لولدها المفضل هارون منها لكل
هو لنفسه ، ومنعها استنجاب موسى لأفكار اللذات من جانب
أخيه بتعيين ولده خلفا له ، وضعت الأم حدا للخلاف
بتسميم موسى ، ولم يجد هارون الذي لم يكن قد جاوز
الرابعة والعشرين من عمره صعوبة تذكر في إقناع ابن
موسى بالتنازل عن الخلافة ، وفي عام ٧٨٦ بدأ حكم
أشهر خليفة في الإسلام .

وكلما أمعن المرء في دراسة حياة وخلق هارون الرشيد؛
كلما بدا أنه استأثر من المؤرخين المحدثين بتأثير
منقطعين . وليس من شك في أنه كان حاكما قديرا ،
وأنه كان قاسيا وغيورا ، بيد أنه لم يكن ذا خلق فذ ،
منفصل عن أي عصر وعهوده الدائبة ، ورث هارون
امبراطورية بصورتها المتكاملة ، ولها مواصفات ثقافية وإدارية
أصبحت الآن مناط الحسد من الشرق والغرب ، وقد تقلد
مكان القمة في هذا الإرث بما يقتضيه من أبهة وزهو .
لكن من الصعب أن ينسب المرء أي شيء نمله لإثراء
امبراطوريته أو توطيد مقوماتها فإن ممكنات انطلاقة
صعبة ولاية كانت أكثر بروزا صعبة دائبة ، وقد كان
لحملاته الثالثة ضد البيزنطيين أكبر مكسب ، ونقطة
التسلط والانسجام اللذان ودهمت بسلسلة من الثورات
الدموية خلال الشطر الأخير من حكمه ، وكانت علاقاته
الشخصية تعانيها في أحيان كثيرة الغيرة والشكوك
التافهة حيال أوثق أصدقائه ، وحتى أسرته .

أما معاملته لأسرة البرامكة الذين كانوا مثال الخدام
الأوفياء الأمناء لثلاثة أجيال من الخلفاء ، فلا يمكن وصفها
إلا بأنها كانت لونا من جنون العظمة . كان وزيره هو

يحيى ، ابن خالد البرمكي وزير أبي جعفر المنصور ، ذلك أن هارون حجا حادا جدا من الاعتماد على الفرس بصفة عامة وعلى أسرة البرامكة بصفة خاصة في تصريف شئون حكومته . ولم يسبق أن تهيأ لأحد من الخلفاء نصير أوفى من ابن خالد الذي قاوم بعناد وصلابة خطة موسى في تعيين ابنه في مكان هارون حتى لقد زج به في السجن جراء هذا التحدي . كما أن ابن الخليفة للبرامكة في بيته عند هذا العهد ، على واحدا من أبناء يحيى ، وهو الفضل ، كان مسؤولا عن ضم مجموعة المعروفين للاستيلاء على بيزنطة وانتزاعها من الإمبراطورية . وهناك ابن آخر ليحيى ، وهو جعفر ، وكان شابا موهوبا وسيما قد أصبح صديقا حميما لهارون حتى كان الحميمة وجعفر لا يكادان يفترقان وعندما تقدمت السن بيحيى حتى باء بالوزارة ، لم يكن مثارا للدهشة أن يعين هارون جعفر في هذا المنصب .

وقد بلغ من تعلق هارون بصديقه جعفر ومبالغته في تكريمه والإغداق عليه أن زوجه أخته العباسة .

ولكن هذه الصلات الوثيقة لم تشفع للبرامكة حينما اشتد جنون العظمة بهارون رغبة منه التمكن والقوة . فبعد سنوات لم يطق أحدهم أسلوبه على صحبه جعفر فأطاح رقبته تحت سيف الجلاد ، ومن قبله احتال على زوجة جعفر ، وفي سورة جنون سلطته اقسم أن يهلك أسرة البرامكة جميعا . فزج بيحيى الشيخ وابنه الفضل في السجن وصادر ممتلكاتهم . وقد مات كلاهما في السجن ، وبموتهما انتهى كل أثر لأسرة البرامكة التي كانت شأن التفاني في خدمة أسرة العباسيين .

ولقد قيل إن الندم استحوذ على هارون حتى أنه أمضى الأعوام الستة الأخيرة من حكمه وهو يحسكم

الإمبراطورية من ثمرة الصيف ، حيث عاش في غمرات الذهول والحماسة . بيد أن الشدة لم تكن من شأنه أن يرفق من طبعه . فقد استحال في العزلة التي فرضها على نفسه إلى إنسان أشد قسوة ، حتى أن المحيطين به ، رغم عنادهم وولائهم ، أخذوا يتآمرون ضده .

وقد وجد في أخريات عهده ثورة خطيرة في ولاية خراسان ، فقام على رأس جيش كبير في عام ٨٠٨م رغم إصابته بالسرطان لمحاربة الشراذم الذين كانوا بقيادة رافع ابن الليث حفيد نصر بن سيار آخر الولاة الأمويين على خراسان . وكان رافع الذي سعى لاتهامه بالخروج على تعاليم الإسلام لزواجه من سيدة سعت إلى الطلاق من زوجها السابق تخلصا من الدولة الإسلامية ـ قد تزوج من سيدته ورفع لواء الثورة ، كان ذلك أكثر مما يحتمله هارون ، فقد أن حسب الإمبراطورية بحاجز جسيمة في أفريقية وأسبانيا الصحيحة ، حتى عهد والده انفصلت المغرب عن الخلافة تحت زعامة العلوي أحد الباقين على قيد الحياة بعد ثورة ابراهيم في البصرة عام ٧٦٢ . وفي عهد هارون أعلن الحكام العلويون في المغرب استقلالهم أيضا) وفي آخر المطاف تمكن الإمبراطور البيزنطي ـ من طرد الجيوش العربية إلى خارج الأناضول ؛ فكان فقدان جزء من الإمبراطورية المرتقبة أكثر مما يطيقه هارون .

ولقد تمكن هارون من القضاء على ثورة رافع وأسره . وفي هذا الوقت كان هارون يقضي نحبه ، بيد أنه أصر على أن يجاء إليه بالأسير للاقتصاص منه ، وله حضور وأقل بحضوره ورجاله تضرب بعضه ، استخدم أمثلة كيطالية

أخيرا ، قال لرامي : « سوف تقتل كما لم يقتل أحد من قبلك » . وجرى تمزيق رامي وبتر أجزاء جسمه جزءا جزءا ، وإلقائها واحدة تلو الأخرى تحت قدمي الخليفة . ولم تمض ساعات معدودة حتى لفظ هادي ـ أيضا أنفاسه . وكان في الحرس الثوري الكثيرون ، منهم أولئك الذين كانوا ألصق من غيرهم بالعرش ، تنفسوا الصعداء لرحيله .

الفصل الحادي عشر :

العصر الذهبي العباسي

ان أية آمال في أن ذهاب هذا الطاغية الجبور يمكن ان تحمل عهدا جديدا من السلام سرعان ما تبددت بعنف . ففي غضون ثلاثة اعوام شهدت الخلافة صراعا مريرا دمويا بين ابني هارون ، محمد الأمين ، وعبد الله المأمون .

لقد خلف الأمين اباه لسبب وحيد هو انه كان وحيدا بين ابناء هارون الاحد عشر من زوجة شرعية . اما المأمون فقد انحدر من الصحراوي ، وكانت ام المأمون واحدة من عشر جاريات اهداهن اليه [illegible] عن منصة اعتلى بها الخليفة . وكان الأمين موفور القوة الجسدية فارع الطول صحيح الهامة ، حتى قيل انه قتل اسدا بخنجره عندما افلت من عقاله وهجم عليه وهو بصحن القصر .

ولكن قوة الأمين الجسدية لم تنظرها حصافة ونباهة في فن الحكم ، ويبدو انه ورث عن ابيه بعضا طبعه المشكك . وكانت صفة خاصة ريبة في اخيه المأمون الذي كان قد عين قبل وفاة هارون عام ٨٠٩ واليا على خراسان . وقد اكد الأمين هذا التعيين لابقائه بعيدا خاصة عن ميدان العاصمة . بيد انه حتى على هذا البعد لم يشعر بالأمان التام ، فأمر المأمون بقيادة جيشه الى

العراق . ارتضى المأمون أن يترك نفسه أولا ؛ وخاطره المضطرب . ورده في أن الأمين يهدف إلى سلبه نصيبه من وصية أبيهما ؛ وقد اتجه إلى الخراسانيين لكي يشدوا أزره . ولما كانت أمه فارسية فإن ذلك كان مزية لصالحه عندما عزم الأمين من ناحيته أن أرسل جيشا من أربعين ألف رجل للقضاء عليه وعلى مؤيديه . وقد أصيب جيش الأمين بهزيمة كبرى قرب طهران على أيدي قوة من الخراسانيين قوامها عشرة آلاف جندي تحت قيادة طاهر بن الحسين قائد المأمون ونصيره الرئيسي .

كان الأمر يقضي الآن في خروج المأمون ، فقد طلب أخوه الحرب ، ولسوف يعطيه ما طلب . وفضلا عن هذا فإنه إذ لم يقض على الأمين سوف يقضي عليه هو نفسه . وهكذا أمر طاهرا بالزحف إلى بغداد مصحوبا بجيش آخر تحت قيادة هرثمة ، القائد العباسي السابق في شمال أفريقيه .

والواقع أن الولاء كان شيئا نادرا في بغداد في تلك الأيام ، فعندما وصلت جنود طاهر أمام العاصمة في عام ١٨١٢ ، رحب العراق كله من البصرة إلى الموصل بالمأمون وتحدث به خليفة ، ومال جنود الأمين مجبورين إلى جانب العراق . وبعد حصار شديد ومعارك طاحنة دامت أربعة عشر شهرا رهيبة ودمر فيها طاهر وهرثمة أسوار العاصمة ، كانت المدينة ذاتها خرائب وأصابها شلل سقط في أيدي المهاجمين ، وقد قتل الخليفة بأيدي رجال طاهر وحمل رأسه وأرسل إلى المأمون .

وهكذا بدأ حكم المأمون وهو أرقى عصر في تاريخ العباسيين ، وإن كان قد بدأ متعثرا وعدم تمكنها في حكم ، وخزانة الخلافة قد أفرغت . والواقع أن هذا

الأمر الشامل في العاصمة جعل إدارة دفة الحكم من بغداد أمرا مستحيلا ، وكذلك عاد المأمون غير آسف إلى خراسان الصديقة ، حيث باشر الخلافة من مدينة مرو .

لكن اتخاذ مرو مقرا ثابتا للخلافة واعتبار العراق والشام مجرد ولايات ثانية كان أكثر مما يطاق . ولا مراء إذا بدا الشاميون الآن في أظهر الفئات . فإنهم رغم الخضوع الذي طال عليهم طوال العهود الماضية ، لم ينسوا بعد المذابح العظيمة التي ارتكبتها ضدهم جحافل أبي مسلم . ثم إن العراق حيث دار الخلافة منذ أكثر من والتي تحت سيطرة الفرس ، ما لبث أن انحازت إلى التمرد .

ومن ناحية أخرى فإن اختيار المأمون خراسان مقرا لحكمه كان من شأنه أيضا أن يعرضه للوقوع تحت تأثير مجوسي سابق دخل الإسلام هو الفضل بن سهل . وكان الفضل قد سعى ليحكم خراسان عندما خرج المأمون لقتال أخيه ، وقد استطاع أن يؤلف بين السكان الفرس والأتراك ويجعل منهم مجموعة متجانسة . ومكافأة له على جهوده جعله الخليفة وزيرا عند عودته إلى مرو ، وعين أخاه حسن واليا على بغداد . ولكن الفضل كان يضمر عداء دفينا للعرب . وعندما أخذ في وضع حكام من الفرس والأتراك الأمنهم التي تتصل بسخطهم من العرب منكرا عليهم كل حكم ذاتي ، لقد أبدى للعرب كل عداء ، كيف نوى أن يجعل الخليفة يتصرف على هذا النحو في الأحوال الأخرى للإمبراطورية . وفضلا عن ذلك فقد كان شديد الغيرة من قائد الخليفة طاهر وعزله ، وقد أقنع المأمون في أول فرصة بإبعاده عن خراسان . لأوفد طاهر إلى الشام لمحاربة قلاقل القبائل

لزوا ، ومعني هرثمة واليا على شبه الجزيرة العربية ، وقد قبل طاهر هذا التكليف بدون تذمر واتجه الى الشام ولم يغره بريق القتال ولكن هرثمة ذهب الى الخليفة قبل رحيله ليحذره من أن الامبراطورية كلها الى الغرب من جبال زاجروس سوف تفلت من قبضته ما لم يعد سريعا الى العراق . ولكن الفضل كانت له الكلمة الأخيرة لدى الخليفة ، فقد اعتقل هرثمة وزج به في السجن حيث توفي بعد فترة قصيرة ، ولعله لقي مصرعه بفعل الوزير الرهيب .

ولكن هذا التحذير ما لبث ان تحقق سريعا ، ففي عام ٨١٦ أجبر حسن على الانسحاب من بغداد . فقد شهدت العاصمة وما حولها الثلاث سنوات مستشاري المأمون الفرس لها مسرحا وظل العراقيون على عدائهم الشعبي مدة [illegible] حتى ان [illegible] اليمن في النهاية من تقطيعه من خراسان لامراء اسرته باطلاق العفو عن المتمردين .

لكن الخليفة لم يعدل عن سياسته في ايثار الفرس على العرب . ففي العام التالي عين وريثا للعرش هو علي ابن موسى أحد أئمة الشيعة ومن نسل الخليفة علي . وفي نفس الوقت أمر بأن يغير اللباس الرسمي في سائر انحاء الامبراطورية من اللون الأسود وهو الشعار العباسي الى لون الشيعة الأخضر . ولكي يظهر احتقاره لرأي العام السني فقد سمي وريثه « علي الرضا » . بل انه قرن بشخصية على الرضا حتى غلا حبا وهو لا يفترق عنه ، وزوجه ابنته مبالغة في تكريمه .

ولقد كان التأثير المباشر لتعيين وريث للخلافة من الأقلية الشيعية دون الأغلبية السنية هو اثارة الهياج في

بغداد ، حيث دمغ سكان العاصمة المأمون بالزندقة ، ونادوا بخلعه ايثاراً لعمه ابراهيم .

واخيراً استيقظ المأمون على الخطر البالغ على وضعه ، والحاجة الى فصل جذري يستتبع لاسترداد عرشه . ومن الغريب ان علياً الرضا هو الذي وجه نصيحته وتولاه بالتوجيه السديد ، بناء على مشورة على ما لبث المأمون ان طرد الفضل ورأى ان يذهب الى بغداد بنفسه وامر باعادة طاهر من الشام ليكون واليا على الامبراطورية الشرقية . ولما كان المأمون قد تعلق الى ان حاشيته ووزيره فقد اشتد غضبه عليه ، وتكفلت عصبة من الساخطين على الفضل بتخليص الخليفة والامة من مستقبل السوء ، ولم تمض فترة حتى وجد الوزير مقتولاً في حمامه . ويحكى في حين ان المأمون قد انكر تآمره في الحادث ، فقصد هذا انه لم يساوره شيء من وخز الضمير .

ولقد كان شعور المأمون مختلفاً تماماً عندما مرض صديقه الحميم علي وهما في الطريق الى بغداد ثم توفي . ويقول البعض انه مات مسموماً ، بل هناك من يتهمون المأمون بانه ازاحه من الطريق ، وصحيح ان الامام النبيل لم يكن بالرفيق الملائم لكي يصحب الخليفة في رحلته لاستعادة العرش ، ومع ذلك فلابد من تبرئة المأمون من أي غدر بدر منه حيال صديقه ، فقد اظهر حزناً شديداً لوفاته ، وامر على الاثر ببناء ضريح كبير تخليداً لذكرى شاب ورع كان يعده بمثابة الاخ منذ ان تقدم لأول مرة من خراسان . ولقد صمد مقر هذا الضريح الذي ضم رفات علي الرضا وهارون الرشيد باسم « مشهد » ، وهو يحتل عند الفرس الشيعيين ثاني اقدس مكان في

العالم بعد كربلاء ، المكان الذي استشهد فيه الحسين .

ولقد كان المأمون الى أن تحدث ثورة بغداد وضعه الشخصي يبدو خلال الاهتمام بشئون الحكم فيما لا يتجاوز خراسان ، بيد أنه أصبح منذ الآن رجلا يمسكه أسبابا جديدة وحزم وليه . فحدث أن أدار ظهره لرجال خراسان وبدأ ارتياح العراقيين لوفاة علي الرضا ، يؤذن بالقضاء على أي عائق يحول بينه وبين بغداد . معفيا عن عمه ابراهيم واصلح نفوذا تاما في أهل المدينة الثائرة . وجعل المأمون مشورة طاهر عند النابس الرسمي الى السواد من جديد ، حتى هذا الآن أمره الى تعويض العراقيين عن تجاهله لهم طوال الأعوام الستة الماضية . وقد توج عودته بشكل اللون من الحفلات الباذخة التي يتحدث بها أهل بغداد ، عندما تزوج ابنة الوزير المخلوع حسن بن سهل وسط مشاهد مبهرة من الأبهة والترف . فقد أمطرت العروس بالف من اللآلئ والف من الجواهر من صحاف ذهبية وهي جالسة مع زوجها فوق بساط ذهبي مرصع باللآلئ والياقوت الأزرق ، فضلا عن الهدايا السخية التي احتفى بها العروسان ، والمال الذي كان ينهال عليهم بغير حساب .

وبعد أن تحول المأمون من متفرج على الأحداث الى صانع لها ، شرع الآن في تحويل العاصمة العباسية الى مركز للثقافة والعلم لا يضارعه شيء في عصره . وقد أصبح بعمل تثقيف الشعب بالفنون والعلوم أعظم الخلفاء رعاية للشعر وعلوم الدين والفلسفة والتنجيم والفلك . وكان يشجع ويستقدم رجال العلم والمعرفة دون نظر الى الجنس أو الدين : من مسيحيين ويهود ووثنيين ومجوس . وهذا نور الثقافة الذي تدفق من قبل في

اليونان من منابعه القديمة في مصر وبابل وفينيقية — هذا تدفق الآن من جديد في منابعه الأصيلة لكي يعيد ابها الذهب مرة أخرى .

ومن هذا السبيل أنشئت الأكاديميات للتعليم العالي ، ومدرسة للقانون ، وقبة للعلوم مزودة بمكتبة ومعمل ، وكليات ترصد لها الاعتمادات المالية من الدولة . وقد بذل جهد ضخم للترجمة من اللغة الأجنبية للعلاقة . وأحدثت بحوث كثيرة من أعمال الفلاسفة والرياضيين اليونانيين ومن الأصول الأدبية والفارسية الفارسية . وقد نقلت هذه المؤلفات وغيرها من الكتب الفارسية والسنسكريتية إلى العربية على أيدى جمهرة من المترجمين الذين احتشدت لهم الإقامة في « دار الحكمة » ، وهى مزيج من مكتبة وأكاديمية ومكتب للترجمة ، وعهد بالإشراف عليها إلى « شيخ المترجمين » وهو حنين بن اسحق ، وهو الذي نسبت إليه ترجمة « جمهورية » أفلاطون وكتب « المقولات » و « الطبيعة » لأرسطو ، وكتاب [illegible] وغيرها من ترجمته لهذه المؤلفات على ورقها أحيا .

وفى مجال الأدب العربى شجع الشعراء والمؤرخين وعلماء الدين على تأليف مجلدات سخيفة ومصنفة . والكتب النثر العربى الذى كان يمتاز أصلا باحكام السبك ودقة الأسلوب طابع الجزالة الفارسية والتنميق الذى لازمه منذ ذلك العهد .

لقد كان هذا هو عصر الإسلام الذهبى ، لا فى مجال الحياة المرفهة فحسب ؛ ولكن كذلك فى النفوذ الثقافى والاسهام فيه بالانجازات الكبرى ، والذى لم يَرَ فيه العالم الإسلامى لم يؤثر أعظم التأثير فى الفكر الغربى آنابه

وعلومه . ولم يجعل هذا التكوين باقيا مستقلا ، فقد كان الفلاسفة والأطباء والكيميائيون والفلكيون والرياضيون والجغرافيون من العباسيين في الشرق ومن العرب في أسبانيا هم الذين طوروا التراث الفلسفي والعلمي للبلاد القديمة في اليونان ومصر وفارس والهند ، ونسقوا بينه وبين المعتقدات الدينية لعالم يؤمن بإله واحد . وبهذا أوجدوا الرابط الجوهري بين تعاليم أرسطو وجالين وأفلاطون والأفلاطونيين وبين الأوربيين المحدثين .

ولعله كان أعظم هؤلاء المسلمين ومن أكثر الفلاسفة نبوغا الذين ازدهروا في عصر العباسيين الذهبي هو أبو علي الحسين بن سينا . كان فارسيا من أهل بخارى ، وقد أكسبه [illegible] القراءة علمه . لقد بدأ [illegible] المهنة الطبية الأمير [illegible] بشفاء سلطان بخارى [illegible] الشباب ، وكافأه [illegible] بالصدقات . ومنذ ذلك الحين وهو لم يترك كتابا [illegible] رأيه . له آثار يحق مؤلفاته هو ؛ وقيل رغمه في الحروب الخصيبة من عمره كان قد أتم تأليف قرابة مائة كتاب . في شتى موضوعات كالفلسفة والطب والشريعة والهندسة والفلك والموسيقى وعلوم الدين . وكان من مؤلفاته ما لا يكاد يقطع من دوائر معارف في الفلسفة والعلوم التي تمت بالإغريق وأرسطو . وتحتوي على تقنين الفكر والأبحاث الطبية لجالينوس وأبقراط ، وتطويره طرقا جديدة لعلاج أعداد من الأمراض المعدية . وكما حظيت مؤلفات جابر والرازي ، فقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية ، وقد ظلت حتى القرن السابع عشر وهي لا تزال المرشد والموجه الرئيسي لعلماء الطب في الغرب . ولا عن

اسهامه في خدمة العالم العربي والاسلامي في نحو
العشرين ، فيمكن ان يدلل بحق انه اسدى اكثر من
اي فيلسوف او مؤرخ آخر كتب في ترجمة علوم ومعارف
اليونان وتقديمها الى العالم الاسلامي . والواقع ان اعمال
ابن سينا قد شكلت المنطقة الاساسية في الجسر الذي
مده المسلمون بين مذاهب اليونان الكلاسيكية واوربا
الحديثة .

واذا كان ابن سينا احد الفلاسفة الذين حاولوا من
التنسيق والمواءمة بين ارسطو وافلاطون وبين الاسلام ،
فانه لم يكن الوحيد في هذا المضمار ، اذ سبقه الى ذلك
جيل من الرجال يعقوب بن اسحق الكندي الذي ولد من
اصل عربي صرف في الكوفة والذي اصبح مثل ابن سينا
ابا للفلسفة . فمع اشتغاله في علوم الفلك والهندسة
والكيمياء وطب العيون والموسيقى ، استطاع ان يؤلف
اكثر من مائتي وخمسين كتابا ترجم الكثير منها الى
اللاتينية . وكان لتفسيراته الصحيحة على
القواعد الرياضية اليونانية تأثيرها لدى روجر بيكون ،
كما كانت اضافاته في الموسيقى ، التي نال منها اهتماما كان
عند اليونانيين : الزيادة في هذا المضمار الجديد . وكان
من بين معاصريه العربي محمد بن طرخان الفارابي من
بلاد ما وراء النهر ، الذي عمل على تطوير النظريات
السياسية والفلسفية لافلاطون وارسطو وتطبيقها في الحياة
العربية . وكان الفارابي ذا نبوغ مثل الكندي ، فألف
كتبا في الطب والموسيقى والرياضيات . كما كان عازفا
بارعا على العود ، حتى قيل انه كان في مقدوره التأثير
في نفوس المستمعين الى حد استثارة دموعهم او ضحكاتهم
او هدهدتهم للنوم .

وقد امتازت خلافة المأمون العظيم أيضا بالتقدم في الرياضيات . والواقع أن أبرز رأي أسهم للعرب في سوريا ومصر العرب إنما كان ادخال الأعداد العربية الذي كان الفضل فيه لمحمد بن موسى الخوارزمي أحد الرياضيين المعاصرين لشاكر والد أبناء موسى . ولد الخوارزمي كما يدل اسمه في خوارزم في وادي بلاد النهر عام ٧٨٠ ، وكان حجة في جميع فروع المؤلفات المعروفة في الحساب والجبر . وقد استخدمت هذه الأرقام في أوربا كانت معروفة موضحة في هيئة الصفر حتى القرن السادس عشر ، ومن خلالها تلقت أوربا كلا من نظام الأعداد العربية ـ المأخوذة أصلا عن القواعد الحسابية في الهند ـ وعلم الجبر . ولولا هذا النظام العربي لكان من المحال . ... أوربا في اتباع نظام الأعداد الرومانية ... وكان عمر الخيام أحد نجوم شهرته في الشعر وكان مع ذلك من علماء الرياضيات والفلك المتقدمين . ومن بين أولئك الذين تأثروا بالخوارزمي .

وقد تقدم علم الفلك خطوات واسعة الأهمية في القرن التاسع تحت رعاية العباسيين ، ومثله في ذلك علم الجغرافيا . ومما هو جدير بالذكر أنه قد جربت حسابات دقيقة حجم ومحيط الأرض ، التي أمن علماء الفلك العرب على أنها كروية . وقد ترجمت هذه المؤلفات العربية وغيرها أيضا بعد إلى اللاتينية .

ويرجع الفضل في تقدم علم الجغرافيا إلى الاهتمام بالبلاد الأجنبية الذي أثاره الحج والاحتكاك بالعرب ، وإلى الاتساع الشاسع الذي بلغته الإمبراطورية العربية ذاتها ، وقد تولى الكندي وغيره ترجمة مؤلفات بطليموس

[illegible] هذه
[illegible]
[illegible] التي
[illegible] خدمته
[illegible] كل
[illegible] في
[illegible]
[illegible] الجغرافي
التي [illegible] كل
[illegible] التي
[illegible]
[illegible] التاريخية
والعرفية [illegible]

وقد [illegible] تحقق [illegible]
[illegible] في القرن
[illegible] العبري [illegible]
[illegible] عام
حتى الغزو [illegible] ولعله
[illegible] الطرق التي [illegible] جميعا
[illegible] يرجع
[illegible] وهو
كتابه [illegible] التي [illegible]
[illegible]
[illegible] أربعين
صفحة [illegible] استقرها
في انواع [illegible]
للمواد [illegible] في مصادرها ، وهي

أسفار حملته إلى أقاصي الأركان في العـــــراق وفارس والشام ومصر .

وتلاه في الترتيب التاريخي أبو الحسن المسعودي ؛ من أبناء بغداد ، وقد مصر ، غزوات العرب ؛ ، وقد تقدم المسعودي بكتابه المعروف باسم « مروج الذهب ومعادن الجوهر » عن تواريخ الشعوب واليهود والرومان والهنود ، وأكد دعوى شيء تقول بأنه عند بدء الخليقة كان البحر أرضا وكانت الأرض بحرا . كما نهج المسعودي نهجا جديدا في أسلوب تدوين التاريخ ، فضلا عن تسجيل الأحداث وفقا لترتيبها وتسلسلها ، كما نقل الطبري في عمد إلى تصنيفها ووصلها بالأسر الحاكمة والشخصيات . وبعد قرنين عاد من بعدهم ابن الأثير ، الذي تولى في كتابه « الكامل في التاريخ » تلخيص وتركيز المراجع التاريخية الكبير لابن الطبري ، لم يزد عليه شيء يعطي صورة العروض الطويلة . وفي القرن التاسع عشر كان أحمد ابن محمد بن خلكان من نسب يحيى البرمكي وزير هارون الرشيـــــــد ، أول من ألف مصنفا عاما في السير والشخصيات اللامعة . وجاء في أعقاب ابن خلكان بعد سقوط الخلافة العباسية ، أبو الفداء ، سليل صلاح الدين : الذي تولى بدوره تلخيص تاريخ ابن الأثير وتابع الوقـــائع إلى تاريخ وفاته في عام ١٣٣٢ ، ومن المسلمات أن هذا العلم نفسه قد شهد في تونس مولد أعظم المؤرخين العرب ، عبد الرحمن بن خلدون .

انحدر ابن خلدون من أسرة عربية في إسبانيا كانت قد هاجرت من اليمن في القرن التاسع ، وقد بدأ حياته موظفا في الحكومة في عهد سلطان غرناطة عام ١٣٦١ ، بعد انقضاء نيف وخمسين عام على زوال الخلافة الأموية

في اسبانيا . ولكن نظرا لاثارته مخاوف السلطان مع صلة وزيره القوي الموهوب ، انسحب ابن خلدون الى الجزائر حيث بدأ اعداد مؤلف عن تاريخ الفلسفة جمعه العرب والفرس والبربر ، في مدونة من ثلاثة أجزاء ، اشتهر الجزء الأول منها باسم « مقدمة ابن خلدون » .
وقد نهج ابن خلدون في هذا المصنف الكبير نهجا جديدا تماما باستخدام دراسة اجتماعية للتطورات والوقائع التاريخية تربط بين العوامل المؤثرة كالمناخ والجغرافيا وكذلك الأحوال المدنية والسياسية ، وبين المسئولية الشاملة للأحداث عند الشعوب وما كان يطرأ على امبراطورياتهم من ازدهار وانحدار .

وكان ابن خلدون ، مثل الطبري ، يحب الأسفار والترحال ، وفي عام ١٣٨٢ حمله السعي وراء مواد لمصنفه الضخم الى السفر الى مصر ، حيث أصبح لأول عهده بها محاضرا في الأزهر ، ثم عين كبيرا للقضاة في القاهرة في عهد أحد سلاطين المماليك . وبعد سنوات طويلة صحب جيش السلطان الى الشام لمحاربة المغول ، ويقال أن تيمور لنك زعيم المغول استقبله كمبعوث للمماليك .
وتعد هذه الفترة المصرية بالنسبة لابن خلدون تجربة أخرى في العلاقات الانسانية الذكية ودراساته الاجتماعية الكبرى ، التي ظلت حتى اليوم تعطيه التفوق كمرشد نفسي ولكتابة وثيقة عن طبيعة واخلاق ومزاج الأمة العربية .

على ، وحسبنا كثيرا من العالم البارزة في عصر التنوير والمعرفة الاسلامي الذي بدأ في أوائل عهد الخلافة العباسية وكان مبعث الالهام للتربية العلمية في أوروبا في القرن السابع عشر . ولم يسبق لحاكم عربي أن عمل

على تشجيع وتقدم الرقي الثقـــافي مثلما عمل الخليفة المأمون ، وبعدها توفي وهو في الثامنة والاربعين بالبذندون كانت البلاد تنعم بالأمن والرخاء ، وقد يتذكر الناس هارون الرشيد معروفا خلال رواية الف ليلة وليلة ، ولكن عصر النهوض والسعادة العباسي قد استهل ابو جعفر ، ثم نضج وأينع في عهد المأمون ، حتى لقد اصبحت عاصمة الخلافة اعظم مركز للثقافة والعلم والترف في العالم في وقت كان فيه قادة أوروبا لا يستطيعون حتى كتابة اسمائهم ، ومن المؤسف انه في عصور اقل من ســـــبعين عاما بعد وفاة المأمون ؛ وصل التعسف العبــاسي الســابق الى منتهاه ، وسارت الخلافة مرة اخرى في طريق التدهور .



القسم الثالث

التفكك والأفول

الفصل الثاني عشر :

انفصال مصر عن الخلافة

كان من بين الاخطاء الرئيسة التي ارتكبها العباسيون تخفيف قبضتهم على اطراف الامبراطورية . فانهم خلافا للامويين ، كانوا اكثر اهتماما بالتسلط على الولاة وتجسيد مركز الخلافة منهم بتوكيد وتثبيت حكمهم في كافة ارجائها ، وكان حتما ان يفضي هذا التساهل الى تشجيع الولايات النائية على خلع حكمهم . ثم كان تحدي عبد الرحمن بن معاوية لبغداد حافزا ان يغري حكام الولايات الاخرى بانتهاج هذا المسلك .

والواقع انه ما حل عام ٨٠١ حتى كانت تونس تحت اسباب زعامة واليها ابراهيم بن الاغلب . كان قد عينه هارون الرشيد في العام السابق ، وسرعان ما اقام لنفسه امارة مستقلة في تونس ، وسك لنفسه عملة خاصة حرص على ان يرفع منها اسم الخليفة . وعلى مدار المئة عام التالية ظل هو وخلفاؤه من الاغالبة يمارسون الحكم مستقلين عن كل سيادة عليا من عاصمتهم في القيروان ، حيث اقاموا في الموقع الاصلي الذي بنى فيه عقبة بن نافع مسجده — وهو اول جامع عربي في شمال افريقيا

ومؤسسي القيروان ـ اقاموا المسجد الكبير الذى بقى حتى اليوم اثرا لمن جعلوا من تونس امة مستقلة وجاوزوا القيروان التى تعد فى نظر مسلمى المغرب رابع المدن الاسلامية بعد مكة والمدينة وبيت المقدس . ولقد بلغ من سيطرة ونماء الاغالبة فى القرن التاسع انهم استطاعوا ازالة كل الآثار الباقية لدولة اللاتينية فى شمال افريقية ، وظلت العقيدة الاسلامية فى مدى الالف سنة التالية هى السائدة .

بل ان الاغالبة لم يكتفوا بما حققوه من تأكيد استقلالهم عن بغداد وازالة آثار اللاتينيين من شمال افريقية ، بل شنوا هجومهم عبر البحر الأبيض المتوسط عندما غزوا فى عام ٨٢٧ جزيرة صقلية التى كانت اذ ذاك احدى ولايات الامبراطورية البيزنطية . لقد كان هذا اول تأكيد حاسم للقوة البحرية العربية ، التى اخذت تتزايد باطراد منذ فتح مصر وما تلاه من انتصار على الاسطول البيزنطى . وتضاف الى النجاحات الأخرى التى احرزها العرب مثل الاستيلاء على قبرص وفتح اسبانيا واحتلال جزر البليار ، الى جانب الغارات المتفرقة التى كان يقوم بها القراصنة العرب والبربر على صقلية وكورسيكا وسردينيا ـ الى حماية العرب فى التغلب على خوفهم من البحر . وهكذا تم للاغالبة فى حاجة الى انشاء اسطول لهم جيد التسليح يتمكنون به من مد رقعة ممتلكاتهم الى داخل اوربا . وعندما تلقى الاغالبة فى عام ٨٢٧ نداء من طوائف معينة من الثوار فى صقلية للمساعدة ضد سيطرة الروم ، استجاب الامير الأغلبى

وارسل اسطولا من سبعين سفينة وجيشا من عشرة الاف رجل هبط على الساحل الغربي للجزيرة ، وحوالى عام ٨٣١ سقطت باليرمو ، وسقطت مسينا بعدها بأربعة عشر عاما ؛ وفي حين كان الغزو العربي للجزيرة يمتد ببطء ، قام الأغالبة بالإغارة على سواحل ايطاليا ، فاستولوا على مدن ؛ وهددوا نابلي وروما ، حتى اضطر البابا الى دفع الجزية مدى عامين . وفي عام ٨٦٦ م الاستيلاء على سرقوسة ، وفي عام ٩٠٢ اتم الأغالبة غزو صقلية ، التي اصبحت على امتداد الـ ١٨٩ عاما التالية جزءاً من العالم العربي .

وها هي ذي لأول مرة ينشأ فيها اسرة حاكمة من المشرق الى ... حدود الامبراطورية العربية في وقت كانت فيه السلطة المركزية آخذة في الضعف . ولكن في حين كان الأمويون (عمليا) في وضع كان فيه العباسيون يتجاوزون عصرهم الذهبي ، كان الأغالبة عندما انتصروا ... كانت الخلافة العباسية تتصدع من الداخل . ومن المعروف ان السبب في هذا الانهيار الداخلي كان هو بعض العوامل التي اسهم بأكبر قدر في نهاية العصر العباسي الذهبي ، الا وهو غلبة التأثير الأجنبي على الحكم والعنصر العربي . وحتى في موضوع وراثة الخلافة فإن العباسيين لم يعودوا يحرصون على تقدم العربي . فان هارون الرشيد والمأمون لم يكونا فقط نصف فارسيين ؛ بل ان اربعة وثلاثين من الخلفاء السبعة والثلاثين الذين جاءوا بعد ابي العباس ولدوا من امهات من الجواري (الفارسيات او التركيات) ولم يولد من نساء عربية خالصة سوى ابي العباس وابنه الأمين .

وكان دور الروم والفرس هو الغالب في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في بغداد ، ولم يعد للعنصر العربي مكان ذو خطورة . ومع وجود هؤلاء [illegible] يعرفون [illegible] هؤلاء من الفرس يحكمون الأقاليم ، [illegible] الخليفة [illegible] والجيش الامبراطوري [illegible] . وكانت الحملات العسكرية تشكل [illegible] من الفرس او الأتراك .

وعندما ولي المعتصم شئون [illegible] الخلافة بعده أخذ الجنود الترك [illegible] ، لقد كانت [illegible] في [illegible] ؛ [illegible] على [illegible] من الخراسانيين [illegible] ؛ وعينهم [illegible] من [illegible] وتركستان [illegible] من "تحت آسيا الوسطى حيث [illegible] في الأسر على عهد [illegible] ، [illegible] كل عام الى العراق ومصر [illegible] الامبراطورية ، ولكنهم لم [illegible] من الحروب ، فان هؤلاء المجندين الأشداء [illegible] في صفوف جيش الخليفة .

وقبل نهاية حكم المعتصم عام ٨٤٢ استولى الأتراك على قيادة الجيش وأصبحوا يسيطرون سيطرة [illegible] على الخليفة . وقد لعبت هذه الفترة برؤوسهم حتى غدا [illegible] الأحفاد الأتراك يتجولون في شوارع بغداد يتصرفون تصرف الطغاة ، وكانوا يعتمدون على الخليفة ويسيرونه لمجرد استقلال

بالإساءة اليهم والآثام . وعندما غضب الخليفة في توبيخ جنوده وزجرهم ، تجمعت طوائف الوافدين للدفاع عن أنفسهم ، بيد أن المعتصم لم يشأ أن يعرض أتراكه للارماح ، فقد صارح بنقل مقر حكومته ، مع أفراد حرسه الخاصة ، الى سامراء في أعالي نهر دجلة ، حيث بنى عاصمة جديدة ، واتاحت انشاء عاصمته المتوكلين حجابهم على أداء مراتب الرفاة بمكاتب العاصمة الجديدة .

ولقد كانت هذه الحركة مشئومة ، كما دل على ذلك تطور الاحداث ، اذ كانت سببا رئيسيا في وضع الخليفة كلية تحت رحمة عصابة الاتراك ، والمزيد من ابعاده عن تأثير الرأي العام . وقد لا يكون هذا محل معارضة من جانب المعتصم ونصفه تركي ، ولكن بالنسبة الى الخلفاء الضعاف الذين تحتم عليهم أن يعيشوا في سامراء من بعده على مدار الثمانية والخمسين عاما التالية ، فان العاصمة الجديدة لم تعد اكثر من سجن سمح لهم فيه بالوجود والبقاء طالما اعتبرا سجانوهم الاتراك . ولقد تعدى بحلول النصف الأخير تعرض كل خطر على الخلافة ، واصبح رجال الحرس الاتراك هم السلطة الحاكمة العليا ، يقصون أو يعزلون الخلفاء طبقا لأهوائهم ونزواتهم ، ويختارون او يبدلون آخرين كل من يرضى تنفيذ أوامرهم او يحاول الافلات من قبضتهم .

ولكن اذا كان الاتراك قد استطاعوا السيطرة على الخلفاء في سامراء ، فانهم كانوا اقل نجاحا فيما يتعلق بالولايات . فقد حدثت بعد وفاة المعتصم سلسلة من الثورات حرمت الامبراطورية من نواحيها في مختلف

وكبد الجزيرة العربية ومصر وفارس وارمينية ، بل حتى تحت أنوفهم في العراق . لكن الولايات لم تشاطر الخليفة الراحل تعلقه بالمماليك التركمانيين ؛ إذ كانوا يعدونهم صنفا أجنبيا من العبيد يبعث حضورهم في ثكنات الجيش خشيتهم للنظام الواجب . وفضلا عن ذلك فإن تفسخ الحكم في الولايات لم يسمح بقدر من الحكم الداخلي الشعبي في مملكات الخلافة الثانية ، مما جعل سلطة العاصمة المركزية متراخية . وسرعان ما أصبح الولاة يتوارثون مناصبهم : فقد أخذوا بالتدريج يحكمون أنفسهم في وجه العاصمة ؛ وقد حدث هذا مع الأغالبة في تونس سوى هذا الى مصر ، وانفصل حكم سجستان في شرقي فارس عن الخلافة في عهد المعتز عام ٨٦٦ .

وفي محاولة لوقف هذا التيار الخطر ، أرسل الأتراك واحدا من جنسهم الى مصر ممثلا لتطبيقه أحكام الأسمى ؛ لدى من في السامرا . كان أحمد بن طولون هو اسم هذا الابن بعد مملوك ساقه من فرغانة . وكان أبوه قد أهدى الى المأمون من والي بخارى ، ونشأ الابن في بلاط الخليفة حتى ينتسب الجندية . وكان أول ما ظهر ابن طولون في عام ٨٦٦ ، عندما حاول الخليفة المستعين الفرار من السامرا الى بغداد . ولكي يستخرجه الأتراك من مخبئه فرضوا عليه الاستسلام في أمان الى المدينة ؛ ولكنه عندما خرج من المخبأ اقتيد الى بيت قتل مأجور في واسط حيث قتل ، كان ابن طولون هو قاتل الخليفة ؛ ومكافأة له على الخدمة الدموية التي أداها لسادته ، عقد رئي وأرسل الى مصر لتهدئة الأحوال فيها مع قوة كبيرة من الأتراك تحت قيادته .

ويبدو أن ابن طولون ساهم في تصفية الهمة ضد
الجمهور كجزء من احراق ثانه . كان هذا هو ما عرف
باسم « ثورة الزنج » أي الزنوج الأحباش الذين كانوا
يعملون في مناجم الملح الصخري في دلتا نهر الفرات .
وكان قائد هذه الثورة عربياً خارجاً على الخلافة يرفع
نسبه الى نسل الخليفة علي . وكان السخط في العراق على
الخلافة والمضطربين عليها من الأتراك قد بلغ مداه حتى
حتى استطاع الزنج في مدى عامين الاستيلاء على البصرة
والأبلة كلها . ثم انتشروا في كافة الاتجاهات حتى
استولوا على واسط والبطائح ، وعبروا بعد ذلك
دجلة . وهكذا ظل هؤلاء الزنج الأثيوبيون الذين كانوا
يستعبدون مستعمرات الخوارج مدى أربعة عشر
عاماً يهددون بالثورة عرش الخلافة ويهزمون جيشاً بعد
جيش ويتحلون … من الأسرى وهكذا . وفي النهاية
بعد … ومقتل زعيمهم … عام ٢٨٣ وقضي على الحركة .

إن الجهود التي تطلبت لسحق هذه الثورة ، التي قدر
البعض خسائرها في الأرواح بنصف مليون ، قد أدت الى
استمرار ضرائب الحرب في … . ولما كان الخليفة
القائم في الحكم وهو المعتمد … أخيه الموفق
الذي كانت له السلطة الفعلية … رواتب الجيش الذي
… الى … . … أمر الولايات بتقديم معونات
مالية . وقد دفعت تلك مالها مصر ؛ حيث اعترف ابن
طولون … بسلطانه …
خاصة … في هذا التصدي بمثابة نقطة تحول في علاقة
مصر بالبلاد العربية الأخرى . وذلك أن مصر أصبحت

منذ ذلك الحين ، باستثناء فترة قصيرة ، الى السيادة العباسية في منتصف القرن العاشر ، دولة مستقلا تماما ، الى ان وضعت الامبراطورية العثمانية بعد ذلك بستمائة سنة نهاية للحكم الذاتي في العالم العربي .

وكان اول عمل قام به ابن طولون كحاكم مصر المستقل هو تشكيل جيش من مائة الف من الاتراك والعبيد الزنوج [illegible] كانت جيوش الخليفة [illegible] بعد ثورة الزنج ، انتهز فرصة غزو البيزنطيين للشام [illegible] ارسال جنود للدفاع عن ممتلكات الخليفة . فقبل العرض ، وخرج ابن طولون من الفسطاط على رأس جيشه ، تاركا ابنه مشرفا على مصر . [illegible] ، ثم اخذ الشام من القوات [illegible] ، [illegible] ابن طولون بمطاردة العدو المنسحب الى داخل الاراضي البيزنطية ، [illegible] للاستيلاء على الموصل . ولكن قبل ان يصل الى هدفه ، جاءته الاخبار بان ابنه [illegible] في محاولة منه لتحقيق [illegible] من الفسطاط وعاصمة الاغالبة في تونس . واذا لم تكن [illegible] بهزيمة نكراء ؛ وفي الوقت الذي عاد فيه ابن طولون لمعالجة الموقف [illegible] ، ولكن [illegible] الأب [illegible] حتى ان يأمر [illegible] بتمزيق اوصال من كانوا مسئولين عن [illegible] حتى الموت .

ومن خلال ذلك استأنف جيش ابن طولون الزحف [illegible] على الموصل . فقد عقد هذا الحاكم الشاب الطموح الذي اصبح الآن مسيطرا على مصر والشام

وشمال العراق : العزم على اسر الخليفة واحضاره الى مصر ، انه لم يتمتع بما ظفر به حتى الآن ، ولرأى ان يحكم الامبراطورية كلها مستندا الى سلطة الخليفة . وهكذا دعى الخليفة لكى ينضم الى قوات ابن طولون التى تحتل الرملة لكى تبسط حمايتها له الى مصر ، حيث يصل فيها عاصمته بعيدا عن المنازعات والاضطرابات فى العراق . ولكن هذه الخطة الجريئة المحكمة لم تنجح لان الخليفة فشل أن يفلت بأمان الى طولون فى الصحراء من اسره الخالى من استمرار . وهكذا فشل دعوة ابن طولون وخرج الى الموصل ، ولكن قبض عليه اخوه الموفق المتنفذ بالعراق ، واعاده بسرعة الى محبسه فى قصر سامرا .

وبعد سقوط هذه المحاولة من جانب ابن طولون للاستئثار بالسلطة العليا ، سعى فى تدعيم قبضته على الشام ، التى اصبحت الآن تحكم من وادى النيل لاول مرة منذ العصر الفرعونى . ومن اجل هذه الغاية بنى قاعدة بحرية فى عكا ، واقام حاميات فى مراكز استراتيجية . كما عمل على تطوير الزراعة وتحسين الري مثلما فعل من قبل فى مصر . ولكن حياته لم تطل فى السنوات الاخيرة من حكمه اذ بدأت فى الخروج عليه منتهية الى الخلافة تحت اغراء الرشوة القوية ، وعلى الرغم من جهده حاكما امتد للامام حتى وفاته عام ٨٨٤ لان الخلافة فشل لحملى المواجهة معه ، فانه لم يعد يستطيع الآن ضمانا الاعتماد على ولاء اهل الشام . وباضطراره الى الانسحاب على هذه الصورة ، ركز اهتمامه على مهام المسعى الاجتماعى والعسكرى فى مصر ، فيمى ازل

مستشفى في مصر لعلاج المرضى وقصرا منيفا لنفسه . ولقد كسيت جدران القصر بالذهب ، وازدانت بنقوش لصور ابن طولون وزوجاته وصحبته بلبوس لماعة من ذهب ، وأقام في حدائق القصر النضرة أبراجا للطيور وحديقة حيوان ، وبركة من الزئبق تطفو فوقها حشايا من الجلد منفوخة بالهواء لكي تهدهد الحاكم وأصحابه فيستطيعوا النوم . ومعظم أثر له بالطبع هو مسجد ابن طولون في القاهرة القديمة ؛ وله حكى في مئذنته الغريبة الملتفة الأصلية جامع المتوكل في سامراء . ويحوط بصحن الجامع الرحب من جوانبه الأربعة رواق مسقوف ذو أعمدة والأفاريز نقشت عليها آيات من القرآن .

وقد كرر ابن طولون ، مثل كل طامع أو مغتصب في تلك العهود ، أن يؤسس أسرة حاكمة من ذريته . بيد أن نجاحه هنا كان قصير الأجل ، فإن ابنه خمارويه المفتتن الأحمق الذي حاول الإطاحة بالعباسيين أثبت أنه خلف ماجن ، إذ كان مسرفا متلافا ومغامرا أحمق غير صاحب حتى باء بالهزيمة من الخليفة العباسي ؛ وبعد أن جاء اثنان آخران وصفيان استبان أنهم ليسوا أهلا للحكم ، كان ذلك إيذانا بنهاية الأسرة الطولونية . وفي عام ٩٠٥ عادت مصر لمدة الثلاثين عاما التالية إلى سيطرة العباسيين .

ولقد علق بعض المؤرخين على تلك التجربة الطولونية بأن زعيمها لم تكن له أهداف رغبة في الأراضي التي بسط سلطانه عليها ومن ثم كانت قصيرة الأمد . كان الحاكم وآله دخيلا يخطو إلى جلب ثروة جديدة من شتى المصادر الأجنبية ؛ وحكم كهذا لا يمكن استدامته .

والواقع أن هذا التحليل يمكن أن ينطبق بانتظام عجيب على جميع العصبيات التركية المختلفة التي ظلت على مدار الثلاثمائة والخمسين عاما التالية تتعاقب كالموجة لتحكم بغداد : الى أن جاء المغول ومحوا الخلافة وماضيها من الوجود .

وكانت النتيجة لا مهرب منها . فقد حلت الفوضى والانحلال بقيام سلسلة من الأسرات الحاكمة الهزيلة وجماعات الزعامة في سائر أرجاء الخلافة وأعلنوا استقلالهم . ومنذ ذلك الحين لم تعد الامبراطورية تمثل كوحدة قوة متماسكة . ومع أن ثمة مرموقين ذوي شهرة عالمية مثل عبد الرحمن الناصر في اسبانيا وصلاح الدين وبيبرس المملوكي قدر لهم أن يظهروا فيما بعد ويستعيدوا المكانة الضائعة للمملكة العربية ، ولكن الخلافة كانت مؤسسة تفقد أهميتها .

الفصل الثالث عشر

سقوط خلافة الأمويين في اسبانيا

حوالي منتصف القرن التاسع ، وعندما بدأ التفكك في الامبراطورية العباسية ، كانت الوحدة التي أوجدها عبد الرحمن الأول من الأسرة الأموية باسبانيا تتفكك هي أيضا بسرعة . فبعد اربعة اجيال على وفاة مؤسسها ، بدأت الولايات والمدن الاسبانية تنتقض على حكم قرطبة. وأول ما بدأ هذا العصيان [illegible] في الجنوب وفي الثغور في الشمال ، حيث [illegible] الأسرة الحاكمة القوطية . [illegible] تحولها الى الاسلام ، مع منزلة نبلاء المسيحيين ، لم [illegible] سلطة [illegible] فبلغ الذروة وبعد ذلك [illegible] اسبانيا بجملتها [illegible] [illegible] في [illegible] من نسل أحد هذه الأسر [illegible] هو عمر بن حفصون [illegible] الثورة [illegible] الأمير الحاكم [illegible] [illegible] خليفة . فعزل قرطبة من بقية اسبانيا [illegible] الى [illegible] الى الاعتراف به [illegible] على أسباب [illegible] الحقيقة [illegible] في الحكم .

[illegible] عبد الرحمن [illegible] الامارة الأموية الكبرى

التي شملت في وقت ما رقعة أصغر نسبيا ، حتى
الى رقعة جبال موحشة من الاراضي حول قرطبة ، ولكن
في عام ٩١٢ جاء شاب في الثالثة والعشرين من عمره
يحمل اسم مؤسسها الاشهر لكي يستعيدها ويرتفع بها الى
أوج مجدها وتفوقها . كان عبد الرحمن الثالث اشقر
الوجه ذو العينين الزرقاوين من ام جارية مسيحية ،
وقد خلف جده عبد الله ، وشرع من فوره في استعادة
الولايات الضائعة . نزعت من قاصية المطرف واستولى
على استجه ... البيرة ... جيان . وبنهاية
عام ٩١٢ كانت ناسته ... تؤدي الجزية ، وفتحت
اشبيلية ابوابها للأمير الجديد . وبعد ظل ابن حفصون
يقاتل بضراوة في الحصون مدى أربعة سنوات أخرى ، ولكن
عندما توفي عام ٩١٧ كان عبد الرحمن في طريقه
لاستعادة الولايات المفقودة الى نطاق قرطبة . وحصون
شمنتة التي يسيطر عليها البربر تدوم وحدها فترة من
الزمن ، ولكن بحلول عام ٩٣٢ انتهت مقاومة هذا
المركز .

بيد أن متاعب عبد الرحمن لم تنته بعد . ففي الوجهة
جاءت أسرة عربية جديدة وطردت الأغالبة من القيروان ،
لقد سموا باسم الفاطميين زعما بأنهم من نسل فاطمة
بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصمموا على
الإطاحة بالقبة السنية من الامويين أعدائهم التقليديين ،
واعلنوا الحرب على امارة قرطبة . ولكن وفاة ابن
حفصون حرمتهم من عون يعولون عليه كطابور خامس في
أسبانيا ، وأدى بعد نظر عبد الرحمن في بناء أسطول له
الى احباط خططهم في التسرب عن طريق البحر . وهكذا

وتوقف الفاطميون عند حدود برقة ، واستقل الامير الشيعي ورسم فتحا القاهرة في بلده وزحف الى افريقية حيث استولى على سبتة واجبر معظم ساحل البربر على الولاء له .

ولكن كان لا يزال هناك اوردونو ملك ليون ولا بد من أن يحسب حسابه . ذلك انه بينما كان عبد الرحمن يواجه التهديد الفاطمي في الجنوب ، توغل اوردونو كثيرا في الاراضي الاسلامية واسر قائدا من الامويين وعلق رأسه على سور قلعة منه مع رؤوس . فخرج عبدالرحمن الى الميدان في عام ٩٢٠ وطرد اوردونو الى ما خلف واستولى على اسلوبه وخربهما ، ثم عاد منتصرا الى قرطبة . وعقب ذلك ظل يواصل الضغط على ليون ونافار حتى عام ٩٣٩ ، حينما اتحد الملكان المسيحيان وانشأت جيوشهما ان تبيد خمسة وكانت هذه الكارثة سببا في ان يترك الاثنين وشأنهما في حكمهما من اسبانيا ، في مقابل معاهدة ونصب من احتفال مشهود في قرطبة اعترفت بسيادته من ارجاء باقي شبه جزيرة ايبريا .

وقبل عشر سنوات من هذا الاصطدام النهائي مع جيرانه المسيحيين كان عبد الرحمن قد دعى بنفسه خليفة ، الا من تبعه جنون العظمة ، ولكن لان الخلافة كانت تنطوي بلدا بعد ان اخذت كل من مصر وشمال افريقيه والولايات الشرقية تؤكد استقلالها . في هذه الظروف كانت اسبانيا العربية تعني بالنسبة للعالم شيئا اكثر من هذه البقية المتطلعة للامبراطورية العربية .

وعندما من دانه عن بلاطه قرطبة كان معدودا من انواع

ما شهده التاريخ ؛ ولم يكن يضارعه في عصره سوى القسطنطينية . كان فيه سفراء معتمدون من الامبراطور البيزنطي ومن ملوك ألمانيا وإيطاليا وفرنسا . وكان القصر المبني على الوادي الأخضر المطل على نهر الوادي الكبير يضم أربعمائة حجرة بالإضافة إلى مساكن عدة آلاف من الخدم والعبيد والحرس . وكان تعداد سكان قرطبة – وهو اليوم ٨٠ ألفا – يناهز المليون نسمة ، وارتفع عدد المساجد إلى سبعمائة . وكان في المدينة ثلاثمائة من الحمامات العمومية في وقت كانت فيه الشعوب الأوربية لا ترى في الاستحمام عادة وثنية . وكانت الشوارع – بجوانبها عشرة أميال – معبدة ومضاءة ؛ وهو تقدم كان مقدرا ألا تنعم به لندن وباريس قبل سبعمائة عام تالية . كان المواطنون الناجحون يتحسسون طريقهم ليلا في الظلام الحالك ويخوضون في وحول الطرق فيها الأقدام حتى الكعبين . وكانت المدينة تضم سبعين مكتبة عامة ؛ وفي عهد الحكم – ابن عبد الرحمن – الذي كان مشغوفا بالكتب ، جمعت مجموعة من أربعمائة ألف كتاب من الكتب العلمية بالخاصة في الإسكندرية ودمشق وبغداد ؛ في حين لم يكن يوجد في أي مكان في العالم أكثر من عشرة آلاف كتاب باللغة اللاتينية . وكان حكام ليون ونافار وبرشلونة يرسلون إلى قرطبة إذا احتاجوا إلى طبيب أو مهندس معماري ، لا إلى فرنسا أو ألمانيا . وكانت جامعة قرطبة تجتذب الطلاب من أوربا وأفريقية وآسيا . وكانت مشهورة بالتسامح والاستنارة عامة ؛ حتى أكد المؤرخ رينهارت دوزي أن كل فرد تقريبا كان يعر

وكتب ... في حين ان حركة القراءة والكتابة في اوربا كانت في زمن ما حكراً لرجال الدين وقلة من النخبة المحترفين .

وفي النواحي الصناعية ايضاً خطت اسبانيا خطوات واسعة تحت خيلافة عبد الرحمن . فقد ازدهر النسيج والمصنوعات الجلدية ، حتى ان مراكش نقلت صناعتها الجلدية من اسبانيا العربية ، وتقدمت صناعة الزجاج والخزف ؛ وكذلك استخراج معادن الذهب والفضة والحديد والرصاص . والحبوب واستعملت الزراعة بفضل الري الذي ادخله العرب ، الذين جلبوا الى اسبانيا ايضاً التوابل التي جاءت الى العالم الغربي من الهند او البلاد العربية والحبوب والمشمش والنخل وقصب السكر . ولا يزال الطابع العربي بادياً في حدائق وكروم اسبانيا الحديثة .

وازدهرت تجارة الصادرات التي كان يتولى تقليبها اسطول عبد الرحمن المصري الى اركان العالم المعروفة . وكانت انجلترا وفرنسا تستوردان منتجات اسبانيا ، التي كانت تجد طريقها ايضاً الى الشرق الاقصى في الهند واسيا الوسطى . وتضم الاصول العربية بعض المفردات اللغوية الاوربية الحديثة مثل (...) و (تعريفة) على مدى انتشار التأثير الذي احدثه اولئك الاخرون المحاربون العرب . لعل ان الحضارة التي ادخلها العرب الى اسبانيا قد اكتسبت على مدار ، الاربعمائة عام التالية كانت الحضارة الوحيدة في امريكا من اوربا .

كان مثل هذا الرخاء كفيلاً بأن يجيء بأموال تضخم عدد المسلمين الآن في عاصمة الخليفة ستة ملايين

ودبع مليون من المدخرات كل عام ، ومن هذا المبلغ كان يصرف الثلث كاحتياطي ، وثلث آخر ينفق على الجيش ، والثلث الثالث كان يخصص للأعمال والمباني العامة .

وكان عبد الرحمن مكثراً في اقامة المباني . فقد بنى ضاحية قرطبة وكثيراً من المساجد الجميلة . وليس من شك في أن أجمل أعماله هو قصر الزهر الرائع ، القائم على بعد أميال قليلة من قرطبة ، والذي أقامه خصيصاً لمحظيته الزهراء وسماه باسمها . فقد اشتمل على أكثر من أربعة آلاف من الأعمدة الرخامية جلبت من ايطاليا وقرطاجنة وبيزنطة ، وعمل بالعمل فيه عشرة آلاف من أرباب الحرف تحت اشراف أعظم مهندس معماري بيزنطي في ذلك العهد مدى عشرين عاما حتى أتموه . واليوم لم يبق منه سوى أسسه وقليل من الجدران والأرضيات وأطلال الصخرية الملكية التي امتدت حول القصر وشملت أكثر من اثني عشر ألفا من الناس . أما الباقي فقد نقل بعد الغزو البربري في القرن الخامس عشر لبناء الدير التاسع في سان جيروم في التلال المجاورة .

وقد نجح الحكم خليفة عبد الرحمن في المحافظة على تماسك الخلافة طوال الخمسة عشرة عاما من حكمه . ولكنه عندما توفي عام ٩٧٦ وخلفه ابنه هشام البالغ من العمر اثني عشر عاما ، أصبح الحاكم الحقيقي لقرطبة شخص لا علاقة له بذلك محمد بن أبي عامر الذي تسمى تظاهراً باسم المنصور . وكان المنصور خلال حكم هشام كاتب رسائل في البلاط ، ولكنه استطاع بعد وفاة الخليفة أن ينال الحظوة عند أرملته حتى استوزرته ،

وبعد أن سيطر على حرس الخليفة الصبي وكانوا خليطاً
من أربعة آلاف من الأسرى الأوربيين الذين سباهم
عبد الرحمن الصقالبة وأدخلهم في الإسلام ـ جدد المنصور
الحرب ضد ليون ونافار ؛ وفيما بين عام ٩٨٥ ونهاية
القرن حرب العرب المسيحيين من أسبانيا ، فخرب برشلونة
ودمر ليون ، ولكنه في عام ١٠٠٢ أضاع ما ناله ، وقتل
في محارب في قشتالة .

ولكن انتصار المنصور القصير الأمد أخفى نهاية الحكم
العربي في أسبانيا ؛ وبموته أخذت الخلافة الأسبانية تتفكك
عاصمتها أيضاً . فقد أغضب حرس الصقالبة على الخليفة
هشام وحطموا أسوارهم ، وتمرد البربر ظهورهم لانتزاع
كل ما يستطيعون من الدولة الأموية المتحضرة . وفي
عام ١٠٠٩ تنازل هشام عن الخلافة ، وفي خلال الاثنين
والعشرين سنة التالية تعاقب ستة خلفاء بسرعة غريبة
دون أن يكون لأحدهم سلطان ما ، وكان كل منهم ألعوبة
إما في أيدي الصقالبة أو البربر أو أبناء قرطبة ، حتى إذا
أدى الدور المرسوم له قتل بيدي منافسه أو قتل خنقه
بالسم أو اختفى من المسرح ببساطة .

وعند انتهاء القرن العاشر كان التفوق العربي
في أسبانيا ينكمش في كل مكان ، ليحل محله البربر أولاً
ثم المسيحيون . ليبقى خلافة متصدعة متهالكة أشبها
بضروب من الأسر الحاكمة والجمهوريات الهزيلة ، كانت
كل منها فريسة سهلة لغارات المسيحيين في الشمال ،
الذين امتدت انتصاراتهم حتى طليطلة وبلنسية . وقد
حرب الحركة الصليبية عام ١٢١٢ عند لاس نافاس دي
تولوزا ، عندما تمكنت قوة ضخمة من جيوش المسيحيين

المتحدة من قشتالة وأرغون وتأخرها من هزيمة الجيش العربي . وعندئذ أصبحت أسبانيا العربية تحت امرة الغـــزاة ؛ فسقطت قرطبـــة عام ١٢٣٦ ، واشبيلية عام ١٢٤٨ ، ولم يتبق من العـــرب سوى دولتهم الجبلية الحصينة وغرناطة . ولكن بعد قرنين سحقتها الجيوش المشتركة لفرديناند ملك أرغون وإيزابيلا ملكة قشتالة .

وهكذا اختفى الحكم العربي في اسبانيا بعد الأموي المتحضر ، وزالت الامبراطورية الثالثة والأخيرة للعرب . وكما حدث بالنسبة للأمويين في الشام والعباسيين في العـــراق ؛ كان الحال كذلك بالنسبة للأمويين في اسبانيا ، ففي كل حالة كان العرب يبلغون ذروة القوة والمكانة على أيدي حكام متحضـــرين ، ثم لا يلبثون أن يخسروا كل ما حصروه حالما يختفي أولئك الحكام المتحضرون من المسرح .

ومن عجب أن استقراء تواريخ الأمم والشعوب يدلنا على أن فترات الانتصارات العربية تلـــك كانت تهيئ المناخ الصالح لازدهار الثقافة والعلم ، في حين أن فترات الاسترخاء وأحيان الانحدار ، هي التي اتسمت بالثراء الثقافي والعلمي . ولقد كان الحال كذلك في اسبانيا العربية ، فمع أن حكم عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الشغوف بالكتب قد توج بطور التطور الثقافي وجعل من قرطبة المركز الثقافي في أوربا ، ولكن ازدهارها يتبع رقعة أعوام الوثبة الكبرى التي أعقبت انهيـــار دولة الأمويين الأسبان . ففي مجالات الأدب ، والشعـــر ، والموسيقى ، كان تأثير اسبانيا العربية في أوربا أقوى وأرسخ من تأثير العباسيين ، فمثلا علي بن حزم الذي

لأن حفيدا لمعلم اسباني تحول عن المسيحية ، وهو واحد من أكثر المؤلفين نشاطا وخصبا في كل العصور . في شبابه خدم هشام الثالث آخر خلفاء الأمويين الأسبان الذي استوزره ، ثم انتقل الى الكتابة عن جمع سيده على يد العصبة العسكرية . فقد ابن ناسب نحو اربعمائة كتاب شملت شتى الموضوعات كالتاريخ والشعر وعلوم الدين والمنطق .

ومعظم الملوك الصغار الذين تولوا بعد سقوط الخلافة الاموية في قرطبة كانوا يضمنون أمراء للشعر في بلاطاتهم ، التي غدت ساحات خاصة في دويلات اشبيلية وطليطلة وغرناطة ، وكل حاكم سارى الأمويين في التفوق الأدبي ، وجميعهم قد عددوا أمرهم على ان يكتب فيلازمهم بهاء قرطبة الوهاج . وكثير من موضعين أسماؤها اليوم ، مثل الملاحم المشهورة ، ترجع أصولها الى الاغاني الشعبية وقصائد الحب التي ألف الشعراء والموسيقيون العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وكان يغنيها المنشدون الجوالون ، وهم أسلاف « التروبادور » الذين عرفتهم اوربا فيما بعد .

ولقد اهتمت اسبانيا العربية اهتماما قويا بالتعليم العام ، وخصوصا تعليم المرأة ، حتى كانت نسبة عالية من السكان تتقن المبادئ الأولية كالكتابة والقراءة ، خصوصا لآيات القرآن ، وقواعد الفصحى العربية والشعر ، وبحلول منتصف القرن الرابع عشر لم تكن قرطبة وحدها هي التي تفخر بما لديها من معاهد التعليم العالي التي تدرس نخبة علوم الدين ، والصحة والقانون والرياضيات والطب والفلك والتاريخ

والجغرافيا . وقد حدث هذا في نفس الوقت في غرناطة ومالقة واشبيلية ، وكان من كل ملاك مكتبة الخاصة به الى جانب المكتبات من مجموعات الكتب المملوكة للافراد . والحق ان مكتبة زاخرة بالكتب المخطوطة الجديدة أصبحت مثار فخر لطبقات الأثرياء . ويرجع ثراء مجموعة المخطوطات العربية الاسبانية اليوم في قصر الاسكوريال قرب مدريد — وهو واحد من أنفس وأعظم ما هو موجود من مثله في العالم — الى ما جمعه فيليب الثاني وفيليب الثالث مما بقي من مكتبات اسبانيا العربية بعد الغزو المسيحي .

وفي ميادين الطب وعلم النبات والفلسفة (كما في الأدب والشعر) كان العرب الأسبان ثاني الناس في تقدم الثقافة الاوربية مع ... الزهراوي حسب الكتاب الذي ... الكتاب الذي ... مقالة ... في العالم العربي الى ... والطب ... في القرن ... كان علم الطب الذي جمعه العرب الأسبان من مصر والعراق وفارس ، يتدفق الى اوربا المسيحية في مجرى لا ينقطع ، ولا تزال آثار العربي موجودة في ... الكيمياء التي حتى الاشتقاق العربي مصطلحات مثل : صودا ، الكحول ، شراب ، القلي .

ومع ان عرب اسبانيا الى اوربا كان عاملا له اعتباره في هذا الاتجاه ، ولكنه كان اضعف اثرا واكثر اهمية بالنسبة لمخترعات اوربية مثل جهاز الاسطرلاب الذي ترجم الى اللاتينية مؤلفات الرازي وابن سينا والزهراوي والادارة الى مترجم الخوارزمي . وينصب هذا بصفة خاصة على التقدم الذي صنعه العرب في مجال الابحاث .

في الوقت الذي كان فيه المعاصرون الأوروبيون مقيدين بالتعاليم المسيحية ، استطاع العرب اجراء بحوثهم العلمية في جو متحرر نسبيا من القيود الدينية ، وعلى سبيل المثال انه حتى القرن الرابع عشر كانت اوروبا المسيحية لا تزال معتقدة اعتقادا راسخا بأن « الوباء الأسود » هو من عند الله ، في حين أن طبيبا مسلما من غرناطة كان يصر على أنه مرض معد ، كما « تثبته التجربة ، والاستقصاء ، وأدلة الحواس ، والتقارير الموثوقة » .

وكان علم النبات من العلوم الأخرى التي ازدهرت في اسبانيا العربية ، فلم يتم نقل أسماء كثير من أنواع الفاكهة والأزهار من الشرق العربي ، بل أجريت كذلك بحوث مستفيضة في الجنينات النباتية بالتربة والسمات ، وقد استقدم الأمراء العرب الأسبان بالبذور والغروس في العصور الوسطى من شتى أنواع الأشجار لأغراض الصالحات .

وكما قال مؤرخ معروف فان ذروة الانجاز الثقافي العربي في اسبانيا انما كان في مجال الفكر الفلسفي ، وكان ابن رشد ، آخر وأعظم الفلاسفة العرب ، أرسخهم ثباتا في عقلانيته التي اخضعت كل شيء ، ما عدا أسس الإسلام المقدسة ، للاستدلال العقلي والتمحيص المنطقي .

ومن أمور التمحيص التي اخضعها ابن رشد لهذا الأسلوب العقلاني مؤلفات أرسطو . وعلى الرغم من أن موسوعته في الطب وبحوثه في مرضى الجدري وتراخوما العيون قد سبقت في مجال البحث العلمي بنصيب وافر مثل اسهام غيره من الأطباء المسلمين ، فان ما يذكر به

أستاذا وجعله محل التقدير والاحترام انما هو دوره
في شرح فلسفة أرسطو . والواقع ان ثلة من الكتاب
الآخرين تنبأوا لهم أن يسيطروا على عقول العلماء والطلاب
الأوربيين في العصور الوسطى لما سيطر ابن رشد . وقد
ظلت مؤلفاته مصادر رئيسية في جامعات الغرب لما لا يقل
عن أربعمائة عام بعد وفاته في نهاية القرن الثاني عشر .
والواقع أن شهرته كانت أكبر دويا في أوربا منها في
أماكن أخرى . ذلك لأنه ترك أكثر من أي فيلسوف
آخر في عصره على شرح الفكر اليوناني للعرب — ومع انه
هو نفسه لم يكن يقرأ كلمة واحدة يونانية وكان يعتمد على
الترجمات العربية — وبهذا كان هو الموجه والحافز على
منبع العصر المدرسي في أوربا .

وجاء علماء آخرون وأصلوا العمل الفلسفي والطبي لابن
رشد وغيره من فلاسفة القرن الثالث عشر . ولكن بحلول
عام ١٢٥٠ كان الغزو المسيحي قد توغل في أسبانيا ،
وبالقضاء على الحكم العربي جفت ينابيع الالهام التي
نهل منها المفكرون العظام . كما أدت القيود العقائدية
في المسيحية الى إعاقة التطور العلمي في أوربا العصور
الوسطى مما أفقدت من أسباب العبقرية ، كذلك
أدى الفكر المسيحي بشبه الجزيرة الى شعور الفلاسفة
العرب بالاختناق بسبب القيود العقائدية التي فرضت
عليهم . ومن المحزن ان التأثيرات الليبرالية التي نقلها
الفلاسفة العرب في أسبانيا الى أوربا المسيحية لم تفد
بأي حال أصحابها في سياسات محاربيهم المسيحيين .
وبعد قيام محاكم التفتيش بدا كأن الأوربيين قد عقدوا
العزم على أن يبعدوا الى الأبد التعلم الليبرالي الذي

مكن رجلا كابن رشد من المساعدة في انتشال أوروبا من العصور المظلمة الى عصر جديد للمعرفة . ذلك انه بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٠ : فرض التحول الى المسيحية قسرا ؛ وفي عام ١٥٥٦ أجبر كافة المسلمين بقوة القانون لا على التخلي فقط عن دياناتهم بل كذلك عن ازيائهم ولغاتهم . وأخيرا ، عند بداية القرن السابع عشر ، لم يكن أي مسلم لا يزال باقيا على دينه اما أن يعدم او ينفى عنوة الى افريقية .

وعلى النقيض مما كان من الغزاة المسيحيين لاسبانيا ، فان النورمانديين الذين استعادوا صقلية ومالطة بعد عام ١٠٦٠ قدموا مثالا فريدا للتسامح لأديان أخرى . لقد استطاع العرب طوال قرون ونصف بعد غزو الأغالبة لها أن يثبتوا وجودهم في صقلية . بيد أن حكمهم أصبحت واهية بسبب الحروب الأهلية بين الطوائف الاسلامية والأغلبية للسكان وعندما غزا الكونت روجر النورماندي الجزيرة عام ١٠٦٠ قتل مرسيا بيوطيه قدم باسيلانه على سينا . وبعد ثلاثين سنة استولى على مالطة وأتم اعادة فتح صقلية .

والواقع ان ما طالع العملية المحدودة النطاق لسيطرة النورمانديين البحر الأبيض من رفض التعصب وضرورة التأثير الاسلامي في صقلية قد أثار بالغ دهشته ، ففي باليرمو وحدها كان يوجد أكثر من ثلاثمائة مدرس ومثل هذا العدد من المساجد . ذلك لأنه في صقلية أكثر من أي مكان آخر في الامبراطورية ؛ وجدت ثقافات الشرق والغرب ملتقى طبيعيا في الجزيرة ، حيث كانت اللغات اليونانية والعربية واللاتينية طوال الاحتلال الأغلبي

والفاطمي مستخدمة خير مثال لإدارة التقاليد السائدة لاختلاط أشكال البيزنطيين والعرب والأسبان والإيطاليين .

وبدلا من قمع اللغة العربية والعقيدة الإسلامية ، اتجه روجر الى استغلال ورعاية الثقافة التي وجدها في هذه الجزيرة المتحضرة الآمنة . فعين المسلمين في أرفع مناصب الحكومة ؛ وجند أغلب قوة جيشه من الجماعات التي هزمها ، وحشد في بلاطه الفلاسفة والشعراء والأطباء العرب ، وترك للمسلمين الحرية لممارسة معتقداتهم الدينية ، ومواصلة الأنشطة التجارية والصناعية والزراعية التي أدخلوها وساعدوا على ازدهارها . بل ان روجر بعد وفاته روجر الثاني ذهب الى أبعد من هذا ، فارتدى اللباس الشرقي المزخرف بحروف عربية ، وهو تفصيل مرجانه ما حاكته سيدات صقلية المسلمات . واستخدم أرباب الحرف العرب لإقامة وزخرفة كنائس عديدة . وتولى أبو عبد الله الإدريسي أعظم الجغرافيين ورسامي الخرائط وأكثرهم أصالة في ذلك العهد رعاية البلاط . كما أن حفيده روجر الثاني ، فردريك الثاني الذي حكم صقلية وألمانيا وأصبح عاهلا للإمبراطورية الرومانية المقدسة وملك بيت المقدس على الخربات عبر الحروب الصليبية ــ حافظ كذلك على هذا التقليد . بعد أن عاد من مغامراته في الشرق وهو أشد تأثرا بالإسلام منه تشربا لروح الغزوات الصليبية . وكان بلاطه يعج برجال العلم ويحتذي كثيرا من أنماط الحياة الشرقية .

وبفضل تأثير خلفاء روجر الأول الموالين للعرب ، أمكن للحضارة العربية أن تستمر مزدهرة في صقلية الى عهد ممتد حتى القرنين الرابع والخامس عشر ، وفضلا عن

ذلك بسبب سيطرة الملوك النورمانديين على جنوبي ايطاليا الى جانب صقلية ، وجدت الثقافة العربية طريقها الى ايطاليا ذاتها . واصبحت الحـرف اليدوية مثل الاشغال الحكومية وتجليد الكتب والتطعيم بالذهب والفضة ونسج الحرير تأتي بها من صقلية الى ايطاليا ، وامتد التأثير الى اشكال معينة من الفن المعماري — مثل ابراج الاجراس التي تمثل اغلب الظن محاكاة للمئذنة الاسلامية . اما في الزمان الثاني ، فقد اصبحت الاقمشة الشرقية تحاكى في معظم المصانع الاوربية ، وغدت الرسوم والتصميمات المحلية تستحلى لدى الرجال والنساء من الطبقات الراقية في كل مكان .

والواقع ان من الانصاف القول بان صقلية قد لعبت دورا يماثل في عظمته دور اسبانيا المسلمة في نقل الفنون والحرف العربية الى اوربا . ونظرا لان صقلية كان من حسن حظها ان حكامها الجـدد كانوا حكاما متنورين متسامحين نسبيا ، فقد استمر العرب الصابرون يلعبون دورهم وقتا اطول من ابناء عمومتهم في اسبانيا بفعل التعصب بايدي الغزاة الاوربيين . ولكن بسبب قلة امدادهم فانهم لم يستطيعوا الاحتفاظ الى ما لا نهاية بتفوقهم الثقافي دون استمداد افكار جديدة من المراكز الاصلية الكبرى للعلم والمعرفة العربية في بغداد ودمشق وقرطبة . ولما كانت كان قد اطفأ كل امل في مثل هذا التعزيز الثقافي ، فان بغداد ودمشق سقطتا اولا بايدي جحافل المغول الغازية من اسيا الوسطى ، ثم سقطت بعد ذلك تحت الايدي الصلبة ايضا للاتراك العثمانيين . اما فيما يتعلق بقرطبة فان ما اطلقوا عليه : (النهضة المغربية) يجعل صحائم

النهضة الأسبانية تعد صورة دالة على خسوف للمعرفة في ظلام العصور الوسطى .

وبعد ذلك دارت العجلة دورة كاملة . فإن الثقافة التي جاءت للعرب من اليونان القديمة ، ما لبثت أن عادت إلى أوربا الحديثة ، وخنق كل الجهد الأدبي العربي على مدار الثلاثمئة والخمسين عاما التالية . وجاء الدور على العرب لكي يغيبوا من جديد في العصور المظلمة .

الفصل الرابع عشر :

الثورة الشيعية
ثانيا : الدولة العبيدية

حينما انهارت الاسرة الاموية الحاكمة في عام ٧٥٠م انتهز العلويون الفرصة لتحقيق حلمهم في الخلافة وربطوا حظهم بالثورة العباسية . ولكن ما لبثوا ان برزوا مرة اخرى لاستغلال تدهور نظام الحكم العباسي . فعندما اسلم خلفاء العباسيون أنفسهم لحراسهم الاتراك ، كان الشيعيون متربصين لتحقيق الحلم ، وفي هذه المرة تقطر اوشكوا على تحقيقه .

بيد ان الانقسامات التي تعرضت لها مذاهبهم عاقت هذه الحركة بسبب اصرارهم على أن يكون الخليفة من نسل علي ، حتى يسموه « الامام المهدي » أو « المنتظر » . ولم يتيسر اصحابهم على راي الا بعد ظهور طائفة منهم عرف أفرادها باسم « الاسماعيلية » نسبة الى اسماعيل من احفاد الحسين . وكان مؤسس هذه الطائفة عبد الله بن ميمون ، وكان ابن طبيب ميمون فارسي ، وقد بدأ نشاطه بتنظيم ثورات شيعية .. ضد حكم العباسيين . فاخذ يرسل مبعوثه الى البصرة اولا ثم الى السلمية في شمال الشام للتشكيك في معتقدات السنيين ولاعلان قرب قدوم الامام المنتظر الذي سيعود يوما الى الظهور ويعيد الدين القويم ، ولما كان داهية سياسيا فقد استغل الى ابعد

حدة العداوة المتزايدة بين العرب والفرس و"على انه يهدف الى تشكيل حركة توحد بين كافة المفكرين الأحرار وتمكن من انتزاع الخلافة من العباسيين المغتصبين ، وحضه هو بدوره على الخروج .

ولو كتب لهذه المطامع الشخصية لابن ميمون ان تتحقق ، فبوفاته عام ٨٧٤ كان قد استهل حركة ادت الى ظهور طوائف وجماعات سرية اخرى استطاعت بدورها بث الرعب والاضطراب في الامبراطورية ، وشجعت على الاحساء وسورية منذ ان اخلاص أسرة شيعية حاكمة على عرش مصر على امتداد مائتي عام . وأول هذه الجماعات شكلها احد اتباع ابن ميمون المخلصين له وهو حمدان قرمط وكان فلاحا من العراق . وقد استطاع بقوة شخصيته استغلال معاناة الفلاحين المعدمين وبدو البوادي وتمكن هؤلاء من الاحساء بالعراق والشام وبلاد العرب ودفعهم الى الثورة ضد العباسيين والاتراك المتسلطين عليهم . وعلى مدى مئة عام استمر القرامطة هجماتهم على الخلافة وهزوا الشام والعراق في النماء . ولكن على الرغم من نجاحاتهم في هذا الميدان ، فقد ظلوا مجرد حركة محصورة تؤثر مقاومة سلطة الآخرين على ممارستها لنفسها .

بيد ان اتباع عبيد الله الفاطميين كانت لهم قصة اخرى مختلفة تماما . حتى ان الكثير من اتباعهم ايضا لطائفة الاسماعيلية ، الا انهم لم يأخذوا بمذهب القرامطة التخريبي ، وقد اتيح لهم ان يشعروا بامبراطورية وان يقيموا خلافة لهم اصبحت ذات قوة واغنى مكانة مما كان لغيرهم من العباسيين .

كان مؤسس الفاطميين ، الذين اضفوا اسمهم من

يتزاعم بصلة النسب الى فاطمـــة بنت النبي ، هو
سعيد بن حسين ، من نسل عبد الله بن ميمون مؤسس
الاسماعيلية الفارسي . وفي عام ٩٠٩ قدم الى تونس من
مركز الاسماعيلية في السلمية ، وعلى الرغم من الزج به
في السجن على يد الحاكم الأغلبي ، الا انه انقذ بمساعدة
شيعي يدعى عبد الله الحسين . وكان عبد الله قد نجح
في تحويل قبائل البربر في شمال افريقية الى المذهب
الشيعي ، وقد تعاون مع سعيد بعد خلاصه من السجن
في الاطاحة بالأغالبة السنيين والاستيلاء على امبراطوريتهم
الشاسعة ، بما فيها صقلية ومالطة . وقد نودي بسعيد
اماما وخليفة واتخذ لقب عبيد الله المهدي . ثم أسس
عاصمة جديدة سماها المهدية على الساحل التونسي
قرب القيروان ، واتجه بعد ذلك الى بسط رقعة مملكته
غربا . ولكن بعد ان واجهه عبد الرحمن الثالث على
سنحق بالبرم تحول بزحفه الى مصر . وفي عام ٩١٤
استولى على الاسكندرية ، وبعد حملتين خرب دلتا
النيل . كما استمر الاسطول الذي غنمه من الأغالبة
والغزو على سواحل فرنسا وجنوا وكالابريا .

ولم تؤد وفاة سعيد عام ٩٣٤ الى وقف التوسع
الامبراطوري الفاطمي . فقد استأنف ولده الضغط على
سواحل اوربا واستولى على جنوا ، واستطاع المعز أحد
احفاده ان يمد حدوده الغربية حتى المحيط الاطلنطي .
ثم لم يلبث الفاطميون ان حققوا اعظم انتصار لهم باضافة
مصر الى امبراطوريتهم المترامية . كان عبد صقلي سابق
يدعى جوهر الصقلي هو قائد جيوش الفاطميين الذي
فتحت مصر . وبعد أربع سنوات من دخوله المعز الى
العاصمة ؛ اتاح الرآ اعظم لتخليد شهرته باضافة حي
جديد الى الفسطاط هو الذي اصبح عاصمة مصر الفاطمية

تحت اسم القاهرة . وفي نفس الوقت بنى جوهر الصقلي جامع الأزهر المعظم ، الذي غدا أكبر معهد للدراسات الإسلامية .

ولم يسبق لمصر أن تحولت من المذهب السني القويم إلى الرفضة الشيعية ؛ ولعل قبول المصريين لهذا التحول كان راجعا إلى حنين الكثيرين منهم إلى حدوث تغيير يعيد لهم استقلالا حقيقيا عن السيطرة العباسية . نعم إن الفاطميين عجزوا فيما بعد على تخطي هذا الأمر الطبيعي لهذا التغيير عندما فرضوا المذهب الشيعي على المصريين عنوة وعندما عمدوا إلى أسلوب العباسيين في جلب المماليك الأتراك لتعزيز الجيش ، ولكن مصر كلها ابتهجت لذلك بهذا التحرر الذي بدا حدثا لأنها هبطت نعمة على الناس .

وبالاستيلاء على مصر ورث الفاطميون السيطرة على الشام والمين والحجاز ، بما في ذلك المدن المقدسة التي كانت الخلافة المعطلة في بغداد عاجزة عن رفع أيديهم عنها : ثم ثبتت خلافة الفاطميين الشيعية المنافسة أن فاقت العباسيين السنيين قوة ونفوذا . فمن المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهندي كان اسم المعز هو الذي يذكر في صلاة الجمعة دون اسم الحاكم الأصل في بغداد .

ومع ذلك ، وبرغم نجاح الأسرة الفاطمية في أول عهدها ، لم يقدر لها أن تكون أطول عمرا من العباسيين . ولم يمض وقت طويل على الانتصار الكبير الذي حققه جوهر حتى بدأت الأسرة في التصدع . فإن « الحاكم » حفيد المعز كان في الحادية عشرة من عمره حين ولي العرش ، وعندما بلغ طور الرجولة بدا جليا أنه متعصب مجنون يتلذذ بالقسوة والعسف ويمارسهما بأسلوب شيطاني

ضد المسيحيين واليهود ، اذ اجبرهم على لبس السواد وركوب الحمير ووضع اطواق حول اعناقهم . ولقد قتل (الحاكم) العديد من وزرائه الذين سعوا الى التخفيف من شناعة اعماله . وفي محاولة عبثاء للقضاء على المسيحية في املاكه هدم عددا من الكنائس . وقد عادى هذا الخديوي كافة الحدود منتحلا لنفسه الالوهية ؛ واخيرا لقي حتفه قتلا في عام ١٠٢١ فوق جبل المقطم بتحريض من اخته التي اتهمها في عرضها .

وقد حاول خلفاء (الحاكم) التعويض عن تطرفه مبتدأين باعادة بناء كنيسة القيامة . بيد انهم كانوا في اقليم غيابا يتقمصهم الضعف ، عاجزين عن وقف القضاء الذي هو . فقد تلاشت الشام وفلسطين عن السيطرة المصرية . واستولى النورمانديون على صقلية ومالطة ، وانحلت ولايات الامبراطورية العظيمة تسلخ واحدة تلو الاخرى ، بل ان بعضها عاد الى ولائه القديم للعباسيين . وفي الداخل عاد الحرس في المدينة الاتراك والشراكسة الى التمرد مطالبة مواطنيهم في بغداد ، فاغتصبوا سلطة الخليفة ، ومضوا يبددون من اموالهم الترف . ويضاف الى هذا كله تفشي المجاعة مدى سبع سنوات مما ادى الى خراب البلاد واستنزاف مواردها .

ومع ذلك فان الفاطميين برغم هذه النكسات ومآثر منهم بأصول الفارسية ، استمروا يحيون حياة الترف والابهة التي كادت تضارع مثيلتها في بغداد في عصر « الف ليلة وليلة » . وكان القصر في القاهرة يأوي ما لا يقل عن ثلاثين الف شخص ، منهم من الخدم والباقي من جنود حرس الخليفة وعائلاتهم . وكان الخليفة شخصا مشرون

المدينة العامرة ، معظمها من الطوب وبارتفاع حوالى
خمسة طوابق ، وعدة ممالك من الحوانيت ، وكانت
الشوارع الرئيسية مرصوفة ومضيئة ، وشوارع الأسواق
مسقوفة . وكانت الأمانة وحسن المعاملة مرعيتين الى حد
كبير . وكانت الرقابة الصارمة على الأسعار مفروضة على
أصحاب الحوانيت ، وكل من يبيعون بأسعار تجاوز
الحد الأقصى يطاف بهم فوق جمال . ويكرهون أمام
الناس على الاعتراف بسوء فعلهم . وكانت السرقة تكاد
تكون غير معروفة ، وكانت حوانيت الصياغة والصيارفة
تترك بغير إقفال في الليل . وكان الخلفاء الفاطميون يقتنون
مجموعة ضخمة من المجوهرات والحلى الذهبية والآنية
الثمينة والعطور والعاج والأبنوس . وكانت مجوهراتهم
وذخائرهم معرضة للأحداث الكريهة ، وفى الكتابات
الرسمية السابقة كان ممن توفى يترك بحوزتهم مخلفات كبيرة
مملوءة بالجواهر . ومع ذلك فعندما أصابت المجاعة مصر
عام ١٠٧٠ لم يتردد الخليفة القائم من ارسال أطفاله
الى بغداد لئلا يتعرضوا للموت جوعا في مصر .

وفى مجال الخلق الثقافي كان الفاطميون متخلفين كثيرا
عما كان يتوقع من الاسلام العربي . لقد بنى جوهر
الصقلي جامع الأزهر ، وأسس العزيز لها ، الحاكم ا
مكتبة قيل انها ضمت في وقت من الأوقات مائتي ألف
كتاب ومخطوط ، تعرض الكثير منها فيما بعد للنهب على
أيدى الجنود الأتراك الذين استخدموا المخطوطات في
اشعال نيرانهم والقلة الكتب الجلدية في ترقيع نعالهم .
وكان الحاكم : أحد مستخدمها بنفسه ، فبنى مرصدا
فوق جبل المقطم الذي لقي فيه مصرعه . كما بنى
دار الحكمة للترويج للمذهب الشيعي . ولكن بغض
النظر عن هذه الأمثلة القليلة ، كان الانتاج الثقافي

للفاطميين هزلا . فقد كان العلماء والكتاب سواء كانوا من أبناء البلاد أو من الخارج لا يجدون إلا أن التشجيع وأثر التخاذل في جو يسيطر عليه التعصب الشيعي . ومع تقدم الحكم الفاطمي تحول ما بدا أنه تغيير سطحي إلى لون من التعصب الشديد يدفع إلى حد ابكار إلى حرية التعبير .

ولكن إذا كان التعصب الشيعي قد حال دون قيام رجال الفكر برسالتهم ، فإن غيرهم قد حيل بينهم وبين الثورة على الحكومة الفاطمية الغالية ومن التحالف في القدس بين المماليك والخلفاء . وهكذا لبث الفاطميون يملكهم السلطان الذي عاش وحسب عاما بعد موت الحاكم ، وفي خلال المائة عام الأخيرة من حكمهم لم تكن امبراطوريتهم تتألف إلا من القليل من مصر ذاتها ، ولكن ، مع استمرار ضعف عماد الخلافة التابع في مشاكلها الخاصة مما حال بينها وبين محاربة استرداد مصر : فقد أصبح أمراء العرب العاملين في الخلافة الإسماعيلية أن يظل بعيدا من التصدي ، إلى أن أصبحت مصر مسرحا للقتال بين صلاح الدين والصليبيين في عام ١١٦٩ .

وقبل أن يبدأ الفاطميون في مصر في التدهور والزوال بوقت طويل ، كان العباسيون الحكام في بغداد يتداولهم الحكام الأتراك واحدا بعد الآخر ؛ وكل منهم يغتصب السلطان بقطعة أخذ من سابقه ، ثم كان الخلفاء يحدون ويفسدون ، وكل منهم يقتل أو يسلم بعد بضع سنوات ، ويجبهم أن يكونوا سوى أدوات في أيدي الأتراك . ولى الضعفاء وانخدعوا هنا انطباع الكاتب في تلك الأيام ، لم يكن أحد آمنا على نفسه من السيف ، واتقهم

حصنا من الأمن كان الخليفة نفسه ، وربما يختص بالامبراطورية ذاتها ؛ فإن عوامل الفرقة التي لابد من وجودها في كيان متعدد القوميات استفحلت الى أقصى حد لضعف السلطة في المركز . فبنهاية القرن العاشر كان شمال افريقية ومصر مستقلين ، وتبعت الشام مع مصر ، واجتاح القرامطة شبه الجزيرة العربية وجنوب العراق . واستلبت أجزاء من فارس قبل ذلك ، وحكمتها سلسلة من الأسرات الصغيرة المتعاقبة عليها : مثل الصفارية ، والسامانية ، وبني بويه الذين أقاموا الدولة البويهية وكانت لهم مطامع في غرب العراق . ولما تم لهم ما أرادوا صاروا يعينون الخلفاء ويعزلونهم حسب أهوائهم ، وأصبحت بغداد مجرد عاصمة اسمية تخضع للأوامر التي تصدر اليها من عاصمتهم في شيراز .

وفي خلال ذلك بدأت قوة تركية جديدة في الشرق تتمثل في أسلاف العثمانيين . كانوا السلاجقة الأتراك الذين استمدوا اسمهم من رئيس تركماني يسمى سلجوق ، الذي قاد قبيلته عام ٩٥٦ من سهول الغز في تركستان الى منطقة في الاقليم المحيط ببخارى ، حيث أصبحوا مسلمين سنيين متحمسين . وبانتهاء القرن قام طغرل حفيد سلجوق بالزحف الى خراسان واستولى على مرو ونيسابور من الغزنويين ، وبينما جيوش طغرل في أراضي الغزنويين استولوا أيضا على بلخ والري وأصفهان . وبعد حوالي عشرة سنة من أول زحف لجيوش طغرل من بخارى ، وصل على رأس قواته الى أبواب بغداد ذاتها . كان ذلك في الثامن عشر من شهر ديسمبر عام ١٠٥٥ ، أي بعد مئة وخمس سنوات من وصول البويهيين الى هذه الأبواب . وكما حدث في المرة السابقة فتحتها

في حوزة الخليفة الأتراك أمام الفرس ، فإن هؤلاء غدوا الآن من السلاجقة ، ولم يتركوا للخليفة شيئا سوى الترحيب بالفاتحين الجدد .

وقد أحرز طغرل أيضا آخر نقطة من المجد لشعبه والأتراك الخلعة في الاحتفال الذي نصب فيه وصيا على الامبراطورية وملكا على الشرق والغرب ، مع لقب السلطان . لقد جيء بطغرل حتى عرش في مواجهة الخليفة حيث نحى خضوعه وأبدى صداقة بالغة . وبعد هذا المشهد العظيم النظير خلع عليه سبعة أثواب مكرمة به . تمثل الولايات السبع التابعة للامبراطورية العباسية ، وحزام به سيف ، وتاجان إلى تعنيان المملكة الشرقي والغربي . وفي النهاية رحل طغرل بحشده من بغداد ونخب عاصمته في [illegible] .

وقد أتبع طغرل هذه الاستعدادات بزواج من ابنة الخليفة . بيد أنه لم [illegible] بعد الزواج إلا فوق عام ١٠٦٣ . [illegible] أوائل [illegible] السلطان الاسم [illegible] ولكن هذا [illegible] الوسيم قد علا شأنه في عروات السلاجقة للروس والعراق ؛ كما كان [illegible] الطول إلى حد كبير [illegible] . والحديث عن شخصيته [illegible] بصفته في الاسلام [illegible] . لقد أمضى طغرل معظم حكمه [illegible] في تدعيم مركز السلاجقة [illegible] السابقة .

الامبراطورية العباسية موحدة تحت حكم لأكثر من مئة وخمسين عاما . غير ان اسبانيا وشمال افريقية ومصر كانت لا تزال مستقلة تحت تهديد الفواطمية في شبه الجزيرة العربية كان قد زال في النهاية . ومن الملتحق الى مجاري في استعادة ، وحد سلطانهم بلا منازع .
وبعد مدون التجربة الداخلية على هذه الصورة لم يشجع الب ارسلان وزنا في مد رقعــــة املاكه على حساب الامبراطورية البيزنطية . وبعد بضع سنة من ولايته انحرفوا الى داخـــل ارمينيا المسيحية واستولى على عاصمتها آني . وفي عام ١٠٧١ هزم الروم عند ملاذكرد في ارمينيا واسر الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينس . وعندما سيق امام آسره سأل الامبراطور من الذي كان يفعله مثل ارسلان لو انعكست الآية ، فجاء الرد الصريح بهذه العبارة : « كنت اجلدك حتى الموت » . والواقع ان هذه الصراحة الفاضحة جعلت السلطان السلجوقي يوافق على الافراج على حسابه رومانوس في مقابل فدية ضخمة وجزية سنوية ، بالاضـــافة الى تحرير جميع الاسرى المسلمين لدى الروم .

وقد بدأت الفتن السلجوقية بعد ان ازاحت الحكم البيزنطي عن جزء كبير من آسيـــا الصغرى ستقل من الشرق رنـــفر هو الاراضي التي تعرف حديثا . وهكذا ولاول مرة اصبحت هذه الاقاليم محصورة تحت لواء الاسلام : ووضع الاساس هنا للدولة التركية الحديثة في العصر الحديث . ان عددا من الفاتحين والخلفاء والمسلمين من امويين وعباسيين قد فشلوا واخفقوا مرارا لكي من آسيا الصغرى خلال القرنين الثامن والتاسع . ولكن هذه الغزوات كانت ذات طابع الى الخطف . وفضلا عن ذلك فان الغزوات العربية لم تكن

مجد الفرس ، ولا كانت لديهم الرغبة في الاستقرار في هذه المناطق لرقعتها الجرداء البعيدة عن العرب والتعصب في الشام وفلسطين والعراق . أما الأتراك السلاجقة فقد هبطوا من أراضي موحشة تجتاحها الرياح في أواسطها ، وقد شعروا أنهم في روح دائمة تنعم في المناخ الدافئ والحقول الوفيرة في آسيا الصغرى .

ولقد بدا أن ألب أرسلان أحب الأرض الرومية هو أيضا ، فهو خلال السنوات التسع من حكمه لم يزر بغداد قط وجعل عاصمته في أصفهان بفارس . ووضع كل وزيره نظام الملك الفارسي المشهور - وهو من أعظم رجال العلم والمعرفة في تاريخ الإسلام . فإن نظام الملك هو الذي أسس ، معهد النظامية (في بغداد ، الذي أصبح بعد ذلك أكبر معهد آخر لتعليم العالي في العالم الإسلامي . وهو الذي أصلح التقويم الفارسي ، ووضع تحت رعايته عمر الخيام الشاعر الرياضي الفلكي الأشهر وساعده في إخراج رباعياته وغيرها من المؤلفات . ولقد أصبح المؤرخ ابن خلكان أن نظام الملك كان يجمع في يديه مقاليد السلطة كلها ، في حين لم يكن الخليفة يملك شيئا ولم يكن له إلا أن يجلس على العرش أو يتمتع بالصيد . ومهما يكن فإن نظام الملك كان سلطة مؤثرة ومتحضرة ، فقد لقي حتفه اغتيالا بأمر من الشيخ المتعصب للدعوة الإسماعيلية وأتباعهم .

ولقد توفي نظام الملك مع ملك شاه ، الخليفة الثاني في عام واحد (١٠٩٢ م) الأول بيد شيعي متعصب والثاني بالسم . وبعد نزاع على السلطة بين أبناء ملك شاه الثلاثة ، وما تبعه من الصراع الذي تعرضت له الإمبراطورية تحت حكم السلاطين السلاجقة الثلاثة الأول

إن انحسر سريعا إلى حشاه من الانقسام والهزيمة . وعلى الرغم من أن السلجوقيين استمروا يسيطرون على الخلافة مدى قرن آخر ؛ فإن الامبراطورية التي وحدها طغرل والب ارسلان سرعان ما آذنت بالزوال . فقد انفصلت الولايات الشرقية ؛ إلى غير ما عودة قط ، وفي نفس الوقت زحف الصليبيون من الغرب . وبعد ذلك بمئة وخمسين عاما عصفت جحافل المغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو من الشرق ووضعت نهـــــاية لاحتضار البيت العباسي الذي كان يعالج سكرات الموت .

ولقد كان مقدرا أن يعرف العالم الاسلامي لبها بعد مرحلتين من الجهد والنجاة من القوى المسيحي والوثني المغولي . كان مقــدرا أن يسطر كل من صلاح الدين والسلطان المملوكي بيبرس صفحتيهما المشرقتين في تاريخ الإسلام ، ولكنهما استمدا من مصر لا من بغداد القوة التي ردت الصليبيين على أعقابهم وصدت المغول من بعدهم . ذلك أن بغداد قد أنهت دورها كفيصل في الأحداث ؛ وأصبحت الآن مجرد متفـــــرج عليها ليس بقي من الامبراطورية العباسية .

فهرس

القسم الأول :

القسم الثاني :



هـــذا الكتاب

أنتوني ناتنج سياسي انجليزي اشتهر بالعمق والوقوف الى جانب الحق والصلابة في الرأي ، وعندما وقع الاعتداء الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ احتج على ذلك العدوان واستقال من وظيفته وكان وزيرا للدولة للشئون الخارجية في وزارة انتوني ايدن ، ولم يغفر اليهود له موقفه الى جانب مصر والعرب فحاربوه ولكنه لم يعبأ بهم واصدر كتابه « العرب » وقص فيه تاريخ العرب بأسلوب سهل موجز ممتع وبدءه من العصر الجاهلي وختمها الى العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ .

وفي الفصول الخاصة بالعصر الحديث وقف ناتنج الى جانب الحق العربي وكشف مخططات اليهود بالتآمر مع قوات الاستعمار لانتزاع فلسطين من أرض العرب وتسليمها لليهود بالخداع والتقلب ، كل ذلك في أسلوب علمي دقيق مؤيد بالوثائق لهذا اختار الهلال هذا الكتاب ليقدمه الى قراء العربية على جزءين .

وهذا هو الجزء الأول .